٢٠٢

HARLEQUIN

روايات أحلام

لن تعيده الأشواق

لي ويلكنسون

www.elromancia.com
مرمورية

لن تعيده الأشواق

الحياة أغلى بكثير من أن نهدرها بسبب الشعور بالذنب...

بالرغم من معرفة سيرا بهذا، فقد كانت مصرة على أن تهدر حياتها بالزواج برجل لا تحبه، رافضة العودة إلى رجل أحلامها كير.

صرخت به بقوة: «ألا ترى أن كل ما تفعله عقيم؟ لن أترك مارتن قطّ. إن احتجازي هنا ما هو إلا مضيعة للوقت...».

- لا أظن أن من الصعوبة إقناعك.

- ذلك لن يغير شيئاً، وما إن تتركني أذهب حتى أهرول عائدة إليه...

- وإذا رفضك؟

- سأركع أمامه لكي يسامحني إذا اقتضى الأمر...

ظنت أن كير استسلم... ولكنها لم تكن تعلم أن دوافعه الحقيقية أقوى بكثير من السابق... فبالإضافة إلى رغبته فيها، هناك رغبة أشد قوة، وهي رغبة الانتقام...

لي ويلكنسون

تعيش لي ويلكنسون مع زوجها في منزل ريفي مشيد من الحجر، يعود تاريخ بنائه إلى ثلاثماية سنة خلت، في قرية (ديربيشير)، التي غالباً ما تعزلها الثلوج شتاء. يتمتعان معاً بالسفر ومؤخراً قاما بالتعاون مع ابنتهما وصهرهما برحلة حول العالم دامت سنة كاملة دون انقطاع. من هواياتها القراءة والاهتمام بالحديقة وإقامة حفلات الشواء المفاجئة لعائلتها وأصدقائها.

www.elromancia.com

١ ـ لقاء من الماضي

هبط المصعد برفق، ثم توقف. حين فُتح البابِ، خرجت منه «سيرا» كما يخرج السجين إلى الحريّة، وراح حذاءها الرياضي يصرصر على الأرض الرخاميّة وهي تعبر مسرعة ردهة مبنى «واربورتن» الفخمة.

كانت الردهة خالية في هذه الساعة المبكرة من الصباح. لكنّها رأت الحارس الليلي في بزّته الزرقاء، وهي تقترب من الباب الزجاجيّ. أشرق وجهه المتغضن بابتسامة ترحيب وهو يقول: «صباح الخير آنسة «رينولدز».

لاحظ باهتمام أبويّ أنها لا تزال تبدو نحيلة وشاحبة بعض الشيء.

ـ صباح الخير «بيل». كيف حال ظهرك؟

ـ ليس سيئاً جداً.

راقب بذلتها الرياضيّة باللونين الكحليّ والأبيض، وأنفها المشرق، وشعرها الأسود الحريريّ الطويل المربوط في ضفيرة عالية. كانت تبدو في هذا الزيّ كأنّها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، رغم أنّه يعلم من محادثة سابقة أنّها تبلغ الرابعة والعشرين، سألها:

ـ خارجة لممارسة رياضة الجري حول المنتزه كالعادة؟

أجابته بلطف: «هذا صحيح».

ـ حسناً، من المؤكّد أنّ الطقس جميل اليوم للقيام بذلك.

كان «بيل» يتصرف كالمعتاد، فكان الحوار نفسه يتكرّر كلّ صباح، مع فارق وحيد يظهر في ملاحظته الأخيرة التي تتبدّل مع تبدّل الطقس.

فتح لها الباب الجانبيّ، فابتسمت له شاكرة. خطر له للمرّة الألف أنها كائن صغير جميل، وأنها تختلف عن العديد من النزلاء في المبنى. فهي تفلح دائماً في رسم ابتسامة مبهجة وإلقاء تحيّة طيّبة بالرغم من مسحة الحزن التي لا تفارق محيّاها.

كان الطقس في الخارج بارداً ومنعشاً، وقد ارتدت السماء ثوبها الأزرق الشاحب البريء. وكانت جادّة «فيفث آفينيو» غارقة في سكينة الفجر كطفل يغطّ في نوم عميق، قبل أن يستفيق على ضوضاء النهار.

سارتْ في اتجاهها المعتاد، وهي تستمتع بالهواء النقيّ الذي يعد بيومٍ شديد الحرارة.

ما خلا عدّاء وحيداً كان يركض على مسافة بعيدة، بدا المنتزه كأنّه يخصّها وحدها. وأحبّت الشعور بالوحدة. كانت تلك الساعة الوحيدة من النهار التي تتحرّر فيها من الجو الخانق في شقّة «مارتن» الفخمة، وتشعر بالراحة الحقيقية والخفّة وهي على سجيّتها.

كان ذلك السبب الحقيقي الذي يجعل من تلك النزهات الصباحيّة الباكرة كنزاً حقيقياً بالنسبة إلى «سيرا»، إلى جانب حاجتها الشديدة لهذه التمارين الرياضيّة، كما كان أيضاً السبب الذي دفعها لإخفاء الأمر عن «مارتن».

كانت «كاثلين»، ممرّضة «مارتن» الإيرلندية الجذابة بشعرها الأسود، على علم بتلك النزهات، لكنّها كتمت الأمر بعدما أظهرت تعاطفاً شديداً معها. وكانت «سيرا» ممتنّة لها جداً.

فلو اكتشف «مارتن» الأمر، لوجد طريقة ما لمنعها. فقد أرادها إلى جانبه دائماً في كلّ دقيقة من كلّ يوم، يدفعه في ذلك حبّ التملّك والغيرة اللّذان يبلغان حدّ الجنون.

كانت «سيرا» تتعذّب لأجله. لكنّها كانت منهكة بالرغم من تعاطفها الكليّ مع معاناته وآلامه وهو محتجز على كرسيّه النقّال.

ما كانت لتشعر سوى بالامتنان الخجول لـ «كاثلين» التي تخفّف عنها

أحياناً عبء البقاء إلى جانبه، وذلك بإصرارها على أن يأخذ قسطاً من الراحة في غرفته لساعة أو اثنتين، بعد صباح مفعم بالعمل. كان يلتفت حينها إلى «سيرا» طالباً منها البقاء قريبة منه، فيأمرها بنبرة حاسمة: «لا تخرجي».

فتطمئنه قائلة: «لا، لن أفعل».

ـ سنقوم بجولة في السيارة بعد الظهر، حين أنتهي من العلاج.

لكنّها ضجرت من سيارة الليموزين الخاصة المكيّفة، ومن الجلوس بدل السير على الأقدام، ومن وجود «مارتن» إلى جانبها، في حين أنّها تؤثر البقاء وحيدة... شعرت بالخجل والتعاسة، فقطعت حبل أفكارها الخائنة. لا بدّ أن الأمور ستكون أسهل بكثير عندما يصبح قادراً على متابعة حياته العمليّة، كالسابق.

كان «مارتن» رجل أعمال نشيط، ممّن يرون في السكون باعثاً على المرض. كان ذا طبع حاد قد ينفجر في أي لحظة، مما جعله مريضاً متطلباً وصعب المراس. حتى أنّ «كاثلين» نفسها، صاحبة المزاج المرح دائماً، كانت توشك أن تفقد أعصابها بعض الأحيان. وقد فرح جداً حين قدّم له أطباؤه تقريراً إيجابياً يبرز تقدّم حالته الصحيّة. ففي غضون بضعة أشهر، سيتخلص من الألم ويصبح قادراً على الوقوف على قدميه مجدّداً.

لكنه قد لا يتمكن بعد الآن من الدخول في سباق للركض أو القفز فوق الحواجز. كما قد يتسبّب له ذلك بدرجة ضئيلة من العرج.

كان رجلاً اجتماعياً ناجحاً، لكنّه اعتزل الناس منذ وقوع الحادث، إلاّ شقيقته «شيرل» وصهره «روبرتو». رفض الخروج من شقته، لكي لا يراه الناس في هذه الكرسيّ التي أسماها «آلة غريبة لعينة». فلم يكن يخرج إلاّ للقيام بنزهة قصيرة في السيارة بعد ظهر كلّ يوم، كما امتنع عن استقبال أحد في الشقة.

كان عيده الثالث والثلاثون الذي يقع موعده يوم السبت المقبل سيمرّ من دون أن يتنبّه له أحد، لكنه بدأ بالتحضير لإقامة سهرة في منزله «باين كوف» في منطقة «هامبتونز»، في عطلة نهاية الأسبوع، مستنداً في ذلك على

الأخبار السارّة وعلى تشجيع شقيقته «شيرل» التي اقترحت عليه ذلك. فسألته:

ـ كم من الأشخاص تفكّر في دعوتهم إلى السهرة؟

ـ عشرون ربما، أو أكثر ممّن سيبيتون في المنزل.

ـ سنمضي أنا و «روبرتو» بعض الوقت في كوخ «فيدلر» للراحة. هذا ما يسمح لك بتركي أهتم بالترتيبات كلها. سأتكلم مع السيدة «سيمبسون»، وسأرسل الدعوات بالفاكس أو بالهاتف، وأتدبّر أمر متعهدي تقديم الطعام. أعتقد أن أخباراً سارة كهذه تستدعي الاحتفال!

أما بالنسبة إلى «سيرا»، فقد أتى تشخيص الأطباء كهدية ثمينة لها. كانت تشعر في قرارة نفسها بالذعر من أن لا يتمكّن «مارتن» قط من السير مجدداً، فأحست براحة شديدة جعلتها تنهار وهي تذرف دموع الفرح.

كانت ردّة فعلها التالية أقل فرحاً، وذلك لأسباب شخصية صرفة. فمع الأمل بشفاء تام تقريباً، بدا موعد زفافهما يلوح فجأة في الأفق القريب.

كان «مارتن» قد بدأ يتحدث عن احتمال إتمامه في شهر تشرين الأول فشعرت كأن حبلاً حريرياً راح يلتف بشدة حول عنقها. حين كانت «سيرا» تهرب لبعض الوقت أحياناً، كانت تداعب مخيلتها فكرة عدم العودة أبداً. لكن هذه الفكرة لم تكن بالطبع أحد الخيارات المتوفّرة.

ما عدا طعامها ومسكنها، لم يكن عملها كمساعدة شخصيّة لـ «مارتن» مدفوعاً. كما لم يعطها المال قطّ نقداً، خوفاً من أن تبتعد عنه إن هي استقلّت مادياً. وحين كانت تعبر بصمت عن حاجتها لشراء بعض الحاجيات الصغيرة، كان يقول لها: «اشتر ما شئت، وسجّليه على حسابي». فاقتصرت مشترياتها بالتالي على الضروريات الملحّة فقط.

لم يكن لديها أيّ مكان تذهب إليه، ولم تكن تملك المال. لكنّ هذا الواقع المرير ما كان يثنيها عن الذهاب، بل الشعور بالارتباط الأخلاقيّ هو الذي يرغمها على البقاء.

بلغت مجموعة الأشجار والطريق الجانبية التي تسير عليها كالمعتاد وهي لا تزال هائمة في أفكارها.

حين انعطفت عند الزاوية، إذا برجل فارع القامة يظهر أمامها فجأة ويسدّ طريقها، كما لو أنّه كان قابعاً هناك في انتظارها. فجعلتها المفاجأة تطلق صرخة مذعورة. طمأنها الرجل بسرعة:

ـ لا بأس. ما من داعٍ للخوف.

بإمكانها التعرف إلىّ هذا الصوت الخفيض الأبحّ في أي مكان. هذا الصوت الذي قد تفعل أيّ شيء من أجله. وهذا الوجه الغامض الوسيم النحيل، هو وجه لطالما أحبّته وستظلّ تحبّه حتى مماتها. حلّت الصدمة بقوّة محلّ الخوف، فأصيبت بموجات من الدوار. وشعرت برأسها وقد أُفرغ من الدماء وشُلّت ساقاها، وظنّت لبرهة أنها ستهوي إلى الأرض فاقدة الوعي.

هذا ما ظنه هو أيضاً كما يبدو، فقد امتدت يداه القويتان وأمسكتا بذراعيها لتحول دون وقوعها.

ـ «كير!».

كان يبدو تماماً كسابق عهده، لكنّ شيئاً ما هذه المرة كان مختلفاً. ربّما بات نحيلاً أكثر ممّا مضى، لكنّه لا يزال يحتفظ بذلك الجسد الرجوليّ القويّ بصدره العارم وكتفيه الصلبتين. كما احتفظ وجهه أيضاً بملامحه القاسية، بأنفه الحادّ ووجنتيه العاليتين، وذقنه المشقوق. لكنّ خطوط الألم وخيبة الأمل كانت بادية حول فمه المنحوت.

كانت جاذبيّته بالقوة نفسها التي جعلت «سيرا» في يوم من الأيام تقع في حبّه. راحت تنظر إلى تينك العينين الزرقاوين الداكنتين بأهدابهما الكثيفة القاتمة، وهمست:

ـ ماذا تفعل هنا؟

أشار إلى بذلته الرياضية السوداء وعصابة رأسه وسألها بتهكّم:

ـ ماذا يبدو أنّي أفعل؟

كان يمارس رياضة الجري في الماضي. أكان ذلك ما أوحى لها لاشعورياً

www.elromancia.com

بفكرة النزهات الصباحية؟

ـ لكن. . . لكني كنت أظنك تقيم في إنكلترا الآن.

ـ رأيت أنَّ الأوان قد حان لكي أعود وأتابع مجريات الأحداث في «نيويورك». إذاً، كيف حال «روثويل»؟.

تساءلت إن كان على علم بالحادث، وأجابت: «مارتن بخير».

ـ سمعت أن شركة إدارة الأموال «أنكلو ـ أميركان» حققت أرباحاً طائلة خلال السنة الأخيرة. (أمسك يدها اليسرى وراح يتأمل الخاتم الماسي الرائع في إصبعها) ما من خاتم زواج بعد؟

ـ لا.

ـ لم لا؟ كان «روثويل» متيّماً بك.

ـ لا يزال كذلك.

ـ إذن، لم التأخير؟ كنت على أتم الاستعداد للزواج به في الصيف الماضي. (التزمت الصمت، فتابع بسخرية) لا بد أنه الآن يساوي بضعة ملايين من الدولارات، يجب أن يجعلك ذلك سعيدة.

فأجابته بصرامة: «لا أعرف حقاً ما الذي ترمي إليه».

ـ آه، دعكِ من هذا!

ـ لا يعنيني كم يملك من الملايين.

ـ أهذا صحيح! وقد ظننت أن الأمر يعنيك جداً.

ـ حسناً، كنت مخطئاً. لا أعرف ما الذي يجعلك تظن هذا.

ـ اعذريني إن أشرت في كلامي إلى أنك تخلصت مني ما إن ظهر واحد ممن يملكون المال الكثير.

ـ لم أفعل شيئاً مما تقول. (غلب الغضب على نبرتها، وراحت تتساءل كيف بإمكانه أن يلومها هي على انفصالهما) قلت لك إن المال لا يعنيني في شيء.

ـ بالرغم من تأكيدك، لا يسعني إلا الافتراض أن الأمور كانت ستختلف كثيراً لو كنت أملك المال لأصرفه عليك.

جعلت تصر بأسنانها وتجاوزته متابعة سيرها. فاستدار «كير» ومشى إلى جانبها.

ـ أعتقد أننا التقينا في اللحظة غير المناسبة. حين انتقلت إلى تلك الشقة وسط المدينة، كان الحب آخر ما يشغل فكري. . .

لم يعد مهماً كل ما يقوله الآن، فقد علمت «سيرا» أنه لم يحبها قط.

ـ كنت ببساطة لا أستطيع تحمّل نفقات الوقوع في الحب. لم يكن لدي الوقت أو المال لأنفقهما. لكن القدر يلعب لعبته.

تابعت «سيرا» سيرها وهي تنظر إلى الأمام مباشرة. لمح وجهها الشاحب المتشنّج، وأضاف: «لم أتوقع قط بالطبع أن ألتقي بامرأة أحلامي في شقة وضيعة. . .».

تردّدت خطوات «سيرا» السريعة حين غمرها فيض الذكريات الأليمة.

كانت قد وصلت حديثاً إلى الولايات المتحدة، حيث أقامت في غرفة واحدة في الطابق الأخير من أحد المباني القديمة في جنوبي «مانهاتن». وفي مساء أحد الأيام من فصل الربيع، اصطدم أحدهما بالآخر.

كانت تصعد السلالم حانية رأسها وهي غارقة في التفكير. كانت تحمل على صدرها كيساً مليئاً بالمشتريات. في الوقت نفسه، كان رجل يهبط السلالم بسرعة. بلغا المنبسط في اللحظة نفسها، فجعلتها لطمة سريعة من كتفه تترنح إلى الوراء بعد أن سقطت مشترياتها على الأرض.

ظلّ ذهنه متيقّظاً، فلفَّ ذراعيه حولها ليحول دون وقوعها إلى الخلف، في حين كان العديد من العلب الكرتونية والمغلفات، والقليل من الفاكهة يتدحرج بحرية إلى أسفل الدرجات.

كان يبلغ طول «سيرا» خمسة أقدام ونيف، لكن الرجل الممسك بها، فاق طوله الستة أقدام. وكانت كتفاه عريضتين وعيناه تعلوهما أهداب كثيفة قاتمة تبرز لونهما الأزرق الداكن، وشعره الأسود يميل إلى التجعد.

كان أنيقاً في ثيابه البسيطة، وقد بدا كالرياضيين بوركه النحيل وقامته التي لا تحمل أي غرام واحد من الوزن الزائد.

www.elromancia.com

أمالت رأسها إلى الأمام، فانقطعت أنفاسها فجأة وهي تحدّق بوجهه الصلب ذي الملامح القاسية والذقن المشقوق والفم الذي جعل الطيور ترفرف فوق رأسها.

تأملت عيناه الداكنتان اضطرابها، وسألها برقة بادية على وجهه: «هل أنت بخير؟» كان صوته ذو النبرة الخافتة أبح بشكل مثير وجذاباً جداً. فأجابته بتلعثم وقد أربكتها جاذبيته القوية والطريقة التي نجت فيها في اللحظة الأخيرة: «نعم، الفضل لك».

راح قلبها يخفق بسرعة حين ابتسم لها.

ـ باعتبار أنّي الرجل الذي كاد يرميك أرضاً، أرى أنك تنظرين إلى الأمر بطريقة لطيفة ومتسامحة.

أشاحت بنظرها بعيداً عنه وخطر لها أنها تتصرّف كفتاة صغيرة خرقاء، رغم أنها تجاوزت الثالثة والعشرين من العمر.

بذلت كلّ ما في وسعها لكي تبدو طبيعية ولكي تخفي الوقع الذي أحدثه قربه منها، وقالت باستخفاف: «أنا إنسانة لطيفة ومتسامحة. ولكي أكون صادقة، فإن جزءاً من الخطأ يعود إليّ».

أجابها بتهكّم لطيف: «صادقة ومتسامحة! أنت امرأة نادرة الوجود. (وأضاف قبل أن تتمكّن من التفكير في ردّ ملائم)، وانكليزية بالتأكيد».

دفعها كبرياؤها لاشعورياً إلى الرد عليه معلنة: «أنا نصف أميركية....».

ارتفع حاجبه الأسود في دهشة: لم أكن لأحزر ذلك قط!.

ـ رغم أني لم آتِ إلى الولايات المتحدة قط إلى أن سنحت لي الفرصة لقضاء سنة في فرع الشركة التي أعمل فيها في شارع «وال».

ـ أي شركة؟

ـ إدارة الأموال «أنكلو ـ أميركان».

ـ أنا أعرفها. في الواقع، أتممت بعض صفقات الأعمال مع «مارتن روثويل»، الرجل الذي يملك الشركة... ماذا تعملين تحديداً؟

ـ أنا مساعدة شخصية لـ «شيرل روثويل»، شقيقة السيد «روثويل». التقيتها حين أتت إلى مكاتب الشركة في لندن. وحين اكتشفت أني نصف أميركية، عرضت عليّ هذه الفرصة.

ـ فهمت. إذن، مَن مِن والديك أميركيّ الأصل؟

ـ والدتي. وُلدت في «بوسطن».

ـ هذه مصادفة حقيقيّة! وكذلك والدتي.

ـ آه.. أنت إذن أميركي؟ لم أستطع التأكد من لكنتك.

ـ السبب في ذلك هو أني مثلك، نصف أميركي ونصف انكليزي. لقد ولدت وترعرعت في «نيويورك» لكني تلقيت تعليمي في «أوكسفورد». جدّي لأبي يعيش هناك، رغم أن عائلتنا متحدرة أصلاً من «كيثينيس».

ما إن أنهى كلامه حتى تدحرجت برتقالة كانت لا تزال عالقة على إحدى درجات السلّم، وأحدثت صوتاً مكتوماً، فنظر إلى الأسفل وقال:

ـ رغم أنّي أستمتع بالوقوف هنا وأنا ممسك بكِ، لكن من الأفضل أن أنقذ مشترياتك قبل أن تنتهي كلها في الردهة.

جعلت تراقبه وهو يجمع الفاكهة والخضار المبعثرة برشاقة. وعلمت أن شيئاً مميّزاً وخطيراً حدث لها. أعاد كلّ الأغراض إلى الكيس البني اللون وعلق قائلاً:

ـ لم تحدث أضرار تذكر، باستثناء البيض.

ونظر بحزن إلى الرزمة المبلّلة المسحوقة: «آمل أنك لم تكوني عازمة على تناولها على العشاء الليلة».

ـ هذا ما كنت عازمة عليه في الواقع.

حدّقت عيناه بيدها اليسرى التي خلت من أي خاتم، وسألها:

ـ كنتِ تنوين تناول الطعام وحدكِ؟

ـ نعم.

ـ وحدك مساء الجمعة وفي بداية عطلة نهاية الأسبوع؟

ـ لم يمضِ على وجودي في «نيويورك» سوى بضعة أيام. لم يتسنَّ لي

www.elromancia.com

الوقت لكسب الأصدقاء.

رغم أنها كانت امرأة محبوبة، لكن طبعها الخجول وتربيتها الصارمة لم يساعداها في كسب الأصدقاء. لطم جبينه بقوّة وصاح بطريقة مسرحية: «يا للمسكينة «آني»! تعيش وحيدة لا أصدقاء لها في هذه المدينة الكبيرة!».

انفجرت ضاحكة أمام تهريجه اللطيف. فحدجها بنظرة إعجاب وافتتان، وقال:

ـ غمّازتان وعينان خضراوان رائعتان. هذا ما أتمناه! أتعلمين «آني»؟ لم ألتقِ قطّ من قبل امرأة بغمازتين وعينين خضراوين.

ـ أدعى «سيرا»... «سيرا رينولدز».

ـ وأنا «كير سائر لاند».

وتصافحا برزانة: «حسناً «سيرا». بما أني ارتطمت بكِ وحرمتكِ من عشائك، فإنَّ أقلّ ما يمكنني فعله هو دعوتك لتناول البيتزا. ما رأيك؟».

كادت توافق بشغف ولهفة، حين تذكرت تحذيرات جدتها، فترددت.

ـ إن كنتِ لا تحبين البيتزا، بإمكاننا تناول المعكرونة عوضاً عنها.

هزت رأسها برفق قائلة: «أنا أحبّ البيتزا».

راح يراقب وجهها وعلّق بهدوء: «يبدو أنهم حذروك من السماح لرجل غريب بالإيقاع بك؟».

كان الاحمرار الخجول الذي علا وجهها جواباً كافياً عن سؤاله فتابع قائلاً:

ـ قد أكون كبيراً في السن نوعاً ما، لكني أكاد لا أصنف نفسي غريباً.

أجابته بدعابة: «قد يرجع الأمر إلى تعريف كلمة «غريب». وأخشى أنّي لا أعرفكَ جيداً لأحكم في ذلك».

ـ بإمكاننا معالجة هذا الأمر بسهولة.

ـ آه، لكن، حتى ذلك الوقت، ربّما يكون الأوان قد فات.

ـ نقطة جيدة. في هذه الحالة، إسمحي لي بطمأنتكِ في ما يتعلق بنواياي ووضعي الخاص وميولي... ليست لدي أي مخططات شريرة للاستيلاء على

نقودك أو على شخصكِ. كما أني لست متزوجاً أو حتى مرتبطاً بأحد. ولم يرني أحد قط أتحول إلى وحش مفترس، أو مجرم مهووس. من ناحية أخرى، فنحن الاثنين إنكليزيين وأميركيين. كما أني أسكن في المبنى نفسه، ما يعني أنني جاركِ...

ـ لا أظن أن الملاحظة الأخيرة تبعث على الاطمئنان التام. فلا بد أن سفاح «بوسطن» كان جاراً لأحد ما.

تظاهر بالشعور بالظلم وقال: «بالطبع. إن كان مظهري لا يعجبك، قولي ذلك فحسب. فقد أذهب وأرمي نفسي من علو شاهق. لكن ليس عليك الشعور بالذنب...».

كان كلاهما يستمتع بالحوار، وراحت هي تضحك قائلة:

ـ من الجيد أن أعرف هذا. فأنا لا أحتمل كثيراً الشعور بالذنب.

جعل يتفحّص وجهها متأملاً عينيها الخضراوين الصافيتين، بأهدابهما الطويلة، وأنفها المستقيم، وفمها المكتنز العريض وذقنها المستدير. ثم سألها:

ـ إلى أي حد تستطيعين احتمال القليل من طرق الإقناع الودية؟

ـ ليس بالحد الكبير.

ـ إذن، ماذا يحدث إن قلت لك إنني سأكون سعيداً جداً لو رافقتني لتناول البيتزا؟

ـ قد أشعر بنفسي أضعف أمام الإغراء.

ـ الحمد لله على ذلك! والآن، ما رأيك في أن نصعد ونرمي المشتريات قبل أن يموت كلانا من الجوع؟ في أي طابق تقيمين؟

ـ في الطابق الأخير، في الجهة الخلفية. لدي غرفة واحدة.

ـ آه، إنها شقة بغرفة واحدة.

أضاف مبتسماً وهما يصعدان السلم معاً: «أنا أسكن في الطابق الأخير، في الجهة الأمامية. نحن إذاً جاران بالفعل».

ـ من الغريب أننا لم نلتق سابقاً.

www.elromancia.com

ـ من الغريب أننا التقينا الآن. لقد قلتِ إنكِ أتيتِ إلى هنا منذ بضعة أيام فقط، وأنا لم أكن مقيماً هنا منذ مدة طويلة كذلك. وفي هذا النوع من المباني، قد يسكن الناس جنباً إلى جنب ولا يلتقون أبداً، إلا إن كانوا يخرجون ويعودون في الوقت نفسه... وأنا لا آتي إلى هنا عادة في هذا الوقت. لكن زبوناً اتصل في اللحظة الأخيرة ليعتذر عن عدم تمكنه من تلبية الدعوة على العشاء. وحين وجدت نفسي حرّاً، قررت العودة إلى المنزل لتبديل ملابسي قبل أن أذهب لتناول طعام العشاء.

ابتسم لها: «يسعدني أني فعلت ذلك».

كانت الأسابيع القليلة الأولى التي مرّت بها وهي واقعة بجنون في الحب من رأسها حتى أخمص قدميها، من أروع الأسابيع التي عاشتها في حياتها.

اكتشفت أن «كير» كان يمثل كل ما ترغب به في الرجل، بل أكثر. فهو، إلى جانب كونه مثيراً وجذاباً، يتمتع بذكاء حاد وطبع هادىء، وبقدر كبير من رهافة الحس والرحمة والدعابة، وبحبّ كبير للحياة لا ينضب. كان مدمناً على العمل، يمضي معظم الأمسيات في مكتبه في شارع «وال» حيث يبقى حتى ساعة متأخرة، وكذلك جزءاً كبيراً من عطلات نهاية الأسبوع.

بالرغم من ساعات العمل الطويلة، كان ينجح في تخصيص بعض الوقت لرؤيتها كل يوم تقريباً. فكانا يتنزهان أحياناً في الصباح الباكر في المنتزه الصغير المجاور لسكنهما. ويشربان القهوة أحياناً أخرى في المساء في شقتها أو في شقته. وكانا يتناولان الطعام معاً، حين يسمح له وقته بذلك.

حين عزما على القيام برحلة قصيرة إلى شمالي الولاية في عطلة نهاية الأسبوع، اعتذر لها قائلاً: «أنا آسف حبيبتي، لكنيّ لن أتمكّن من الذهاب. فلديّ ارتباطات يومي السبت والأحد».

أدركت الوحدة التي ستعاني منها مجدداً في نهاية الأسبوع، فاعترضت قائلة: «لم عليك العمل لمثل هذه الساعات الطوال؟».

أجابها بحذر: «العمل في مجال العقارات واستثمار الأموال هو عمل متطلّب وشاق».

ـ لكن أحداً بالطبع لا يعمل كل مساء وفي عطلات نهاية الأسبوع كذلك.

ـ إن جزءاً هاماً من عملي يتم عن طريق العلاقات الاجتماعية الشخصية وليس وراء المكتب. كما أن الزبائن يتوقّعون منّي أن أكون تحت تصرفهم في الأربع والعشرين ساعة من كل يوم وفي الأيام السبعة من كل أسبوع.

أمسك يدها وشد عليها مطمئناً: «أعدك بأن الوضع لن يستمر دائماً على هذه الحال. لكني لا أملك الخيار في الوقت الحاضر».

تنهدت بإذعان، وقالت: «عليّ إذن الاستفادة منه بقدر ما أستطيع».

في صباح يوم السبت التالي، ظهر بشكل غير متوقّع عند عتبة بابها. وقال بابتهاج:

ـ تعلمين أني كنت أجري محادثات مع رئيسك في العمل؟

أومأت «سيرا» برأسها. لقد ذكر لها ذلك، حتى أنها لمحت طيفه في أحد الأيام وهو يدخل إلى مكتب «مارتن روثويل».

ـ لقد وافق «روثويل» أخيراً على تأمين الدعم المالي الذي أحتاجه لتطوير الأعمال في «برودواي». وبهذه المناسبة، فلنذهب لإمضاء وقت ممتع!

أمسك بيدها، فترددت قائلة: «لكن... لكن، يجب أن أبدل ملابسي وأسرح شعري».

جالت عيناه على ثوبها المزرر بلونيه الرمادي والأبيض، وصندلها البسيط، وشعرها الأسود الحريري المنسدل على كتفيها، وقال:

ـ لا بأس بثوبك هذا، كما أني أحب شعرك وهو منسدل بحرية.

ـ إلى أين سنذهب؟

راح يجرها بقوة واندفاع على السلالم قائلاً: «سنركب القطار إلى جزيرة «كوني»».

كانت جزيرة «كوني» بمراكز التسلية وساحات المعارض لا تزال مفعمة بالحركة، نابضة بالحياة.

راحا هي و «كير» يتمشيان على طريق جانبية، ويستمتعان بأشعة

www.elromancia.com

الشمس ونغمات الموسيقى ويتنشقان الروائح العابقة في أجواء الجزيرة البهيجة. كما تلذذا بتناول «الهوت دوغ» والبطاطا المقلية وشرب الكوكاكولا. سألها حين لاحظ البريق المشع من عينيها:

ـ هل تعيدكِ مثل هذه النزهات إلى أيام طفولتك؟

هزّت «سيرا» رأسها قائلة: «إنها المرة الأولى التي أرى فيها مثل هذه الأشياء».

قطّب حاجبيه وهو يقول: «أخبريني عن نفسكِ... فباستثناء أنك تعملين لدى «روثويل»، وأنّ والدتكِ من «بوسطن»، وأنك ترعرعتِ في إنكلترا، أنا لا أعلم سوى القليل عنكِ».

ـ ليس هناك الكثير لتعرفه. فقد عشت حياة مملّة جداً.

ـ أخبريني إذن عن كلّ الأمور المملة، وسأحاول جاهداً أن لا أتثاءب.

ـ أنا متأكدة من أن هذه الأخبار لن تثير اهتمامك.

ـ أنا متأكد من العكس. فأنت مزيج غريب من الخجل والشجاعة، من الدفء والتحفظ. أنتِ تحبين الناس، لكنك تميلين إلى تركهم وشأنهم. لا أعتقد أنك ممن يقيمون صداقات حميمة...

بدا عليها الانزعاج من هذا الوصف اللاذع الجريء، فالتزمت الصمت.

ـ أنتِ تتمتعين بدرجة عالية من الكبرياء الصامت الهادىء. ولا تستطيعين اتهام الآخرين أو توجيه اللوم إليهم... أنتِ صاحبة أخلاق عالية.

ـ تجعلني أبدو قديمة الطراز وتقليدية بشكل مريع.

ـ على الإطلاق. أنتِ تماماً المرأة التي طالما أملت في العثور عليها...

شعرت بقلبها ينتفض في صدرها، فحبست أنفاسها:

ـ وأرغب في معرفة الأسباب التي جعلتكِ على هذا النحو. أخبريني عن طفولتك إذن. أين ترعرعتِ؟

ـ في «ساتسيكس».

ـ كيف كان والدك ووالدتكِ؟

ـ لا أعرف. أنا لم أعرفهم قط كما يجب. لقد توفيا ولم أتجاوز الثانية من عمري.

ـ هذا قاسٍ. كيف حدث ذلك؟

ـ تركاني عند جدتي لأبي، وذهبا إلى فرنسا في العطلة للتزلج. كان من المفترض أن تكون هذه العطلة شهر عسل ثان لهما، فقتلا في انهيار ثلجي في اليوم الأول. كان كلاهما شابين يافعين، ولم يكن لهما أي أقرباء، باستثناء والدة أبي.

ـ إذن، من تولّى تربيتكِ؟

ـ جدتي. لم ترد أن تتحمل في سنها مسؤولية طفلة. لكنها كانت امرأة ذات مبادىء صارمة وإحساس قوي بالواجب... كانت جدتي قد فقدت زوجها في السنة السابقة، ولم تكن تملك سوى القليل من المال. لذا، عشنا في نوع من الفقر المقنع... ورغم حرصها على عدم ذكر الأمر، إلا أنني علمت، كما يعلم الأولاد عادة، أني كنت عبئاً ثقيلاً عليها... كانت تؤثر البقاء وحيدة مع نفسها على البقاء مع طفلة. لذا، كانت تتركني دائماً أتدبر أمري حسب مشيئتي وإرادتي...

ـ ألم يكن لديك أصدقاء دراسة؟

قالت «سيرا» وقد غلبت على صوتها نبرة الأمر الواقع:

ـ لم تشجعني على كسب الأصدقاء. لطالما احتفظت جدتي «بنفسها لنفسها»، كما كانت تقول. ولم تر سبباً يمنعني من أن أقوم بالشيء نفسه.

ـ لا بدّ أنكِ عانيت من وحدة قاتلة.

ـ كان لدي أصدقاء خياليون. بفضل المعلّمة في روضة الأطفال التي أولتني اهتماماً ورعاية خاصين، تعلمت القراءة في سن مبكرة جداً...

حين رأت الملامح الكئيبة على وجه «كير»، خشيت أن تكون قد أعطته انطباعاً خاطئاً. فأضافت بسرعة:

ـ لا أعني أن جدتي كانت تعاملني بقسوة، بل إنها بذلت ما في وسعها

www.elromancia.com

من أجلي. وأصرّت على التحاقي بالجامعة. ورغم أني كنت أعيش في المنزل لتوفير المال، غير أننا قاسينا كذلك لتأمين نفقات التنقل...

حين تخرجت بدرجة مشرفة جداً، وذهبت للعمل في شركة «أنكلو ـ أميركان»، شعرت بالفخر والاعتداد كما لم تفعل قط في حياتها. فقالت إن المعاناة والمشقّة اللتين كابدناهما لم تذهبا سُدى.

ـ ما كان رأيها في مجيئك إلى الولايات المتحدة؟

ـ لم تعرف قط. كانت قد بلغت من العمر عتياً، وألم المرض بها، ففارقت الحياة في الشتاء الماضي. وإلا ما كنت لأتركها. كان موتها أحد الأسباب التي دفعتني للاستفادة من فرصة إمضاء سنة في نيويورك. كانت مدة إيجار المنزل قد انتهت، فلم يعد لديّ شيء يبقيني في إنكلترا...

سارا لبعض الوقت بصمت، وغرق كل منهما في أفكاره، ثم أنهيا طعامهما، وتوقفا لغسل يديهما، قبل أن يتابعا السير.

أخذ يدها ولفّها حول ذراعه بلطف، ثم سألها: «والآن، ماذا نجرّب أولاً؟ ساحة المعارض أم أحواض الأسماك؟».

كانت سعيدة لمجرد وجودها بقربه، فقالت:

ـ لا أمانع في رؤية القليل. الأمر يعود إليك.

ـ في هذه الحال، هيا بنا نستمتع بالمعرض.

لم يدع «كير» أي شيء في المعرض يفوتهما، كما لو أنه يحاول التعويض عن طفولتها البائسة، ومرّ ما تبقى من اليوم بمتعة وإثارة لم تعرفهما «سيرا» من قبل.

شكرته ووجهها يشعّ بالبهجة والسرور، فقال بنبرة حنونة غريبة:

ـ في الوقت الحالي، أنتِ سهلة الإرضاء حبيبتي.

اتّجها عائدين إلى محطة القطار مرهقين مشعثين، ومرا ببائع متجول يعرض بعض الحلي التي لفتت نظر «سيرا» فتوقفت لإلقاء نظرة متفحصة.

كانت الحلية التي أثارت اهتمامها خاتماً صغيراً من الفضة. سألها «كير» وهو يخرج محفظته: «وجدت شيئاً أعجبك؟».

سرى الاحمرار على وجهها، فهزّت رأسها بالنفي، وهمّت بمتابعة سيرها.

ـ ما رأيك في هذا كذكرى؟

كما لو أنه سبر غور أفكارها، مد يده والتقط الخاتم نفسه الذي أعجبها، وقال: «جربيه».

ترددت قليلاً، فأمسك يدها اليسرى وأدخل الخاتم في إصبعها قائلاً: «إنه يناسب إصبعك تماماً».

استدار نحو البائع، وسأله: «بكم هذا؟».

فقال: «عشرون دولاراً؟».

أومأ «كير» برأسه، وأعطاه المال. ابتعدا وقد لف ذراعه حول خصرها وهو يهمس لها: «ربما لا ينبغي أن تضعيه لوقت طويل، فقد يصبغ إصبعك باللون الأخضر».

رفعت يدها ونظرت إلى الخاتم قائلة: «سأخاطر في هذا».

ـ في يوم من الأيام، آمل ألا يكون بعيداً، سأشتري لكِ شيئاً أغلى ثمناً بكثير، من محلات «تيفاني».

غمرها الشعور بالسعادة الخالصة والامتنان. «كير» يحبّها ويريد الزواج بها. مهما يكن ما سيشتريه لها في المستقبل، فإنّ شيئاً لن يحل محل هذا الخاتم. كما أنها لن تعرف قط في حياتها قدراً أكبر من السعادة التي تشعر بها الآن...

* * *

٢ ـ طعم الخيانة

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر ليلاً حين بلغا مبنى «براونستون»، حيث تُقيم. وصعدا السلالم. كان يهمُّ بتركها أمام بابها، حين سألته «سيرا» بسرعة، وهي تتمنى ألا يصل هذا اليوم المميَّز إلى نهايته:

ـ ألن تدخل لشرب فنجان من القهوة؟

نظر إلى عينيها المتوسِّلتين، ووافق قائلاً:

ـ فقط إن كانت سريعة التحضير. يجب أن أبدأ العمل باكراً صباح غد لكي أعوِّض عما فاتني اليوم.

حضرت فنجانين من القهوة، شرباهما جالسين على الاريكة جنباً إلى جنب. وما إن أنهى قهوته حتى وقف يودعها، فرافقته «سيرا» إلى الباب.

كان «كير» حتى هذه اللحظة، يحاول أن يدع الأمر بينهما طبيعياً. واقتصر ذلك على المصافحة بالأيدي أو معانقة أخوية.

الآن، استدار فجأة وهو يهم بالخروج، واقترب منها ليتمنى لها ليلة سعيدة. مرر راحة يده على وجنتها، وقال: «يا إلهي، كم أنت جميلة!».

عانقها طويلاً بقوة شعرت معها بالنجوم تتلألأ فوق رأسها وهي تحلق في الفضاء بسعادة غامرة وتنهدت: «آه! «كير»!».

لم تختبر قط من قبل مشاعر الحب هذه التي تفيض حناناً ومودة خالصة. مشاعر جعلتها تذرف الدموع من الفرح. امتلأت روحها بالسعادة بين ذراعيه بحيث لم يخطر لها قط أن «كير» لا يبادلها تلك المشاعر الرائعة.

وفوجئت به يبتعد عنها قائلاً بصوت متهدج مرتجف:

ـ أنا.. أنا آسف. هل أزعجتكِ؟

ـ بالطبع لا!

ـ إذن، لم الدموع؟!

ـ أنا سعيدة جداً. إنها دموع الفرح. أرجوك، قل لي إنك سعيد أيضاً.

ـ أنا سعيد طبعاً.

رفع يدها وقبَّل راحتها: «إني أدعو الله فقط أن أتمكن دائماً من السيطرة على الأمور».

لم تستطع في تلك اللحظات الساحرة، التفكير في أي سبب يحول دون سعادتهما مدى الحياة. وسألته: «أيجب أن تذهب؟».

ـ نعم، أظن ذلك.

ـ لكن، لماذا؟

ـ لأن الوقت ليس ملائماً. فلو أنها علاقة عابرة بعيدة عن الحب والزواج، لكان الأمر مختلفاً. لكنها ليست كذلك. ولا يزال الوقت مبكراً جداً. في الوقت الحاضر، أنا بحاجة لكل دقيقة، ولكل ما أملك من طاقة وقدرة على التركيز. لا أستطيع إلا أن أسألك التحلي بالصبر.

أومأت «سيرا» برأسها بعدما عجزت عن الكلام. فهي قد تفعل أي شيء يطلبه منها «كير».

ـ هذه حبيبتي الصغيرة.

قبَّلها على جبينها قبل أن يطفىء النور ويغلق الباب وراءه بهدوء.

استلقت «سيرا» تحدق بصمت في الظلام، وهي تفكر بعمق بما قاله «كير»، في الوقت الذي كانت سعادتها تتلاشى شيئاً فشيئاً. لقد قال إنه يشعر بالسعادة كذلك، لكن نبرته خلت من القناعة التامة. لعله قال ذلك لأنها ألحت عليه في السؤال. لكنه عانقها وشعرت بدفئه وحبه. تحسست الخاتم في إصبعها، واطمأن بالها، فراحت تحدث نفسها بثقة بالغة: «كل ما في الأمر أنه منشغل جداً بعمله، بحيث لا يتسع له الوقت للارتباط بزوجة

ولتأسيس عائلة. فكما قال هو، «لا يزال الوقت مبكراً».

لكن، مع رجل مدمن على العمل إلى هذا الحد، هل سيتسنى الوقت يوماً لذلك؟ لا. يجب ألا تفكر بهذه الطريقة. إن هي تحلت بالصبر، كما طلب منها، فإن الأمور ستستقيم حتماً.

مرَّ يوم الأحد ببطء وملل. وعندما قاربت الساعة العاشرة والنصف مساء، تبددت كل آمال «سيرا» بمجيء «كير». نظفت أسنانها وارتدت قميصاً قطنياً للنوم، حين سمعت طرقاً خفيفاً على الباب.

هرولت مسرعة وفتحته باندفاع. فإذا هو يبتسم قائلاً:

ـ مرحباً. كنت أتساءل إن كنتِ تغطين في النوم.

كانت سعادة «سيرا» وراحتها عند رؤيته عظيمة بحيث بقيت لبرهة عاجزة عن الكلام. ثم، لعجزها عن وصف مشاعرها، قالت بخفة: «هل ستدخل لشرب القهوة؟».

هز رأسه قائلاً: «أردت فقط الاطمئنان عليك».

حرصت على عدم الإلحاح عليه، وهمست بمرح: «أنا بخير».

كافأها بقبلة على جبينها، وهو يقول: «إذن، سأراكِ غداً صباحاً، في الساعة السادسة والنصف. سنقوم بجولة في المنتزه، إذا سمح لنا الطقس بذلك. وإن كانت تمطر...».

خافت مما يريد قوله، فقاطعته بسرعة: «إن كانت تمطر، فسأعد لك طعام الفطور».

قال مبتسماً: «سأدعو الله أن تمطر السماء غداً».

مر الأسبوعان التاليان بسعادة على «سيرا» لأنهما كانا يلتقيان ويستطيعان سرقة الوقت اللازم لذلك.

بالرغم من أن «كير» لم يحاول الاقتراب منها أو معانقتها، فقد شعرت بدفئه واهتمامه البالغين. وجعلها ذلك تغرق في حبه أكثر فأكثر. والحب، كما قال الشاعر ذات يوم، يصعب إخفاؤه. فكان وجهها يشع ببريق أخاذ أثار المكتب من حولها.

حين عادت «شيرل روثويل» من رحلة عمل، لاحظت ذلك البريق في عينيها، فتقدمت من مساعدتها الشخصية قائلة:

ـ تبدين كما لو أن الحياة بدأت تبتسم لكِ.

ثم أضافت بحنكة: «هذا يشير إلى وجود رجل. ما اسمه؟».

اعترفت «سيرا» بعدما أخذت على حين غرة: «كير سائرلاند».

ـ كير سائرلاند؟

بدت الدهشة على «شيرل» والانزعاج كذلك: «يا له من رجل!».

بالرغم من ابتسامتها، استطاعت «سيرا» أن تشعر بغيرتها المستترة: «التقيت به منذ أسبوعين، حين كان يناقش بعض الأعمال مع «مارتن»...».

توقفت فجأة حين وقع نظرها على الخاتم الفضي في إصبع «سيرا». حدقت به لبرهة، ثم أشاحت عنه بنظرها باستخفاف، وتابعت:

ـ رغم أني لن أصفه بنجم السينما الوسيم، إلا أنه جذاب خطير.

ثم سألتها بحدة: «أين التقيت به؟ هل حدث ذلك هنا؟».

ـ لا. إنه يقطن الشقة المجاورة لشقتي.

قطبت «شيرل» حاجبيها باستغراب: «ماذا يفعل رجل من آل «سائرلاند» في مبنى سكني وضيع؟».

هزّت «سيرا» رأسها في حيرة. فهي لم تطرح على نفسها هذا السؤال من قبل.

ـ هل تعلمين منذ متى يسكن في تلك الشقة؟

ـ منذ وقت قصير، كما أعتقد.

ـ هذا غريب... ربما سأسأله عن ذلك حين يأتي إلى الحفلة مساء الخميس...

كانت شركة «أنكلو ـ أميركان» تقيم العديد من الحفلات الترفيهية. فـ «مارتن روثويل»، شأنه في ذلك شأن «كير»، يعتقد أن الفرص تكون مؤاتية، في جوٍّ من اللقاءات الاجتماعية، وليس من وراء طاولة المكتب.

حذّقت «شيرل» في وجه مساعدتها الشخصية، وأضافت بنبرة عادية: «أعتقد أنك ستأتين؟».

أدركت «سيرا» أن جوابها ليس ذلك الذي تأمل به المرأة، لكنها قالت بثبات: «نعم. قال «كير» إنه سيصطحبني».

بدا ما في نفس «شيرل» وهي تقول: «أنتِ محظوظة جداً. لا أستطيع القول إني لست غيورة».

عندما طرق «كير» أخيراً على باب «سيرا» مساء يوم الخميس، كان قد تأخر ساعة عن موعدهما، وكانت قد قطعت الأمل في حضوره. تجاهلت اعتذاره وهي تؤكد له: «ليس الأمر مهماً. صدقني إذا قلت لك إن الحفلات الأنيقة المتكلفة لا تستهويني مطلقاً».

ـ كم حفلة من هذا النوع شاهدتِ؟

ـ لم أذهب إلى أي منها.

ـ سأحرص إذن على أن تستمتعي بهذه.

كانت جاذبيته آسرة في ثيابه المسائية الأنيقة. فسألته بتردد وهي تدرك أن هذا الاحتفال يتسم بطابع مسرف التبذير: «هل يبدو مظهري لائقاً؟».

كانت ترتدي ثوباً جديداً بسيطاً يتلاءم مع قدرتها المادية المحدودة. إنه ثوب ضيق يصل إلى الركبتين بلونيه الأخضر والفضي الخافتين. قالت لها البائعة: «لا تستطيع أي امرأة ارتداء هذا النوع من الأثواب، لكنك تتمتعين بقامة نحيلة ممشوقة تناسبه تماماً».

وقد تحفظت «سيرا» في البدء في شرائه بسبب تصميمه الجريء الذي يكشف انحناءات صدرها.

كانت ترتدي الحلية الوحيدة التي تمتلكها والتي ورثتها عن أمها، وهي عبارة عن سلسلة طويلة من الفضة لفتها مرتين حول عنقها. حرصت على التزين بها دائماً منذ أن أعطتها إياها جدتها في عيدها الثامن عشر.

طافت عينا «كير» ببطء عليها، من شعرها حتى حذائها الأنيق. فرفع يدها يقبلها وهو يقول بنبرة دافئة: «حبيبتي، أنت تبدين ساحرة فاتنة».

غمرها مديحه بالسعادة، فسألته: «ألا تظن أن الثوب جريء وفاضح جداً؟».

ـ لا...

تمنّت «سيرا» لو أنه يقترح عليها البقاء في المنزل. وحين لم يفعل، قالت:

ـ إن كنا سنركب القطار، فمن الأفضل أن أُحضر معطفي.

هز رأسه قائلاً: «لن تحتاجي له. فالطقس الليلة دافىء جداً. كما أن كل هذا الترف يتطلب استدعاء سيارة أجرة».

حين بلغا فندق «بلازا» في جادة «فيفث آفينيو»، كانت الحفلة في أوجها.

جالت عينا «سيرا» في أرجاء الغرفة الفسيحة الأنيقة. ولاحظت أن كل النساء تقريباً كن يرتدين أثواباً من أشهر الماركات العالمية، وقد زينت بأبهى الحليّ والمجوهرات المرصعة بالأحجار الكريمة بينما كان الرجال، في ثيابهم المسائية الفاخرة، تفيض منهم الثقة والسلطة اللتان يجلبهما الثراء.

بالرغم من إدراكها لبساطة مظهرها، بثوبها الرخيص وسلسلتها البسيطة، رفعت «سيرا» رأسها عالياً بشموخ وثقة. فمع «كير» إلى جانبها، لم تثر اهتمامها كل تلك المظاهر التافهة، وشعرت بالرضى التام.

ربما كانت «سيرا» تبدو في غير مكانها وسط هذا الحشد المتألق، لكن ليس «كير» قطعاً. كان رجلاً قادراً على فرض هيمنة على نظرائه من الرجال، واكتساب السطوة بسهولة بين الأثرياء وذوي السلطة.

شعرت بالنظرات المحدّقة بها خفية وأدركت أن العديد من النساء يحسدنها على مرافقها. ووجدت نفسها تتمنى لو أنها استطاعت من أجله أن تضاهي بمظهرها سائر النساء الأخريات. فهي لم ترده أن يشعر بالخجل منها.

لف يده حول ذراعها بثقة بالغة، كما لو أنه أدرك ما يجول في ذهنها، واتجه بها نحو مضيفيهما.

www.elromancia.com

كانت «شيرل»، بشعرها الأشقر المائل إلى الحمرة كخوذة براقة، ترتدي ثوباً رائعاً بلونه الأخضر المائل إلى الزرقة. وقد بدت بقامتها النحيلة الفاتنة كإحدى العارضات الشهيرات، وهي تتزين بالماس حول عنقها وعلى أذنيها.

وبدا شقيقها هادئاً ولا مبالياً في ثيابه المسائية الرائعة. لم تكن «سيرا» قد التقت بـ «مارتن روثويل» بالفعل، رغم أنها تعمل في مجموعة المكاتب نفسها التابعة له منذ بضعة أسابيع. فلم تكن تلمحه إلا من بعيد.

هي تعلم أنه في العقد الرابع من عمره، وأنه يصغر «شيرل» بسنة واحدة، وكان يبدو من مسافة قريبة أصغر بكثير.

عندما رأتهما «سيرا» يقفان جنباً إلى جنب، أدركت للمرة الأولى كم أنهما متشابهان.

كانا فارعي القامة، صلبي البنية، بشعرهما الأشقر المائل إلى الحمرة، لكليهما عينان زرقاوان باهتتان، وبشرة ملساء ناعمة وأنف صغير وشفتان عريضتان.

هنا، يصل التشابه بينهما إلى حده. فوجه «مارتن روثويل» كبير، ووجنتاه نحيلتان فوق فكّه المربَّع. في حين كان وجه «شيرل» بيضاوي الشكل ووجنتاها ممتلئتين. إنهما وسيمان جداً على طريقتهما الخاصة المميَّزة.

قال بعظمة وهو يمد يده للمصافحة: «ساثرلاند. يسرّني أنك تمكنت من الحضور».

شاهدتهما «سيرا» جنباً إلى جنب. بالرغم من كتفي «كير» العريضتين وقامته الطويلة الفارعة، لاحظت أن «مارتن» يوازيه طولاً ويفوقه حجماً. تصافح الرجلان، من دون أن يبتسم أي منهما للآخر. وتابع مارتن مشيراً إلى شقيقته:

ـ قابلت شقيقتي بالطبع؟

همس «كير» بكياسة وهو يأخذ يدها الممدودة: «آنسة روثويل».

ـ آه، أرجوك، نادني «شيرل».

استدارت نحو شقيقها الذي كان يحدّق بإمعان في وجه «سيرا» الفاتن:

ـ لا أظن أنك التقيت «سيرا رينولدز»، مساعدتي الشخصية! لقد وصلت إلى هنا منذ بضعة أسابيع. كانت تعمل في فرع الشركة في لندن.

ـ أرى أنه فاتني الكثير.

أمسك بيدها وهو يبتسم لها، ففهمت «سيرا» على الفور لماذا لُقّب بالساحر الفاتن.

كانت قبضته هادئة وقوية. وظل ممسكاً بيدها أكثر مما ينبغي، قبل أن يفلتها. أحست بـ «كير» إلى جانبها وقد تشنَّج قليلاً. ورأت في البريق المشعّ من عيني «مارتن» أنه أدرك ذلك وسرَّ بردة الفعل العفوية تلك.

ابتسم «مارتن» وسألها بلطف: «إذن، كيف تتأقلمين مع الجو الجديد «سيرا»؟».

ـ بشكل جيد جداً، كما أعتقد.

ـ هل أعجبتكِ نيويورك؟

ـ آه، نعم.

ـ هل تسنّت لكِ الفرصة لرؤيتها؟

قبل أن تتمكّن «سيرا» من الإجابة، رمقت «شيرل» شقيقها بنظرة خاطفة ماكرة، وتقدمت نحو «كير» لتلف يدها حول ذراعه.

ـ إن كان لديك الوقت، أرغب في أن أعرفك إلى أحد الأشخاص المهمين. إنه يُدعى «روبرتو كانيللي». ورغم أني التقيت به منذ بضعة أيام فقط، إلا أنني أعلم أنه يبحث عن مكان ملائم لنقل أعماله.

استدار «كير» نحو «سيرا» مستأذناً: «آمل أنك لا تمانعين!».

كانت «سيرا» تعلم أن الأعمال هي الهدف الأول والأخير من هذه الحفلة، فأجابته بشجاعة: «بالطبع لا».

ابتسم لها بسرعة وامتنان: «سأحاول أن أعود إليكِ سريعاً».

حذرته «شيرل» قائلة: «يوشك «كانيللي» أن يوقع اتفاقاً مع «بينسون». فإن كان لديك ما يثير اهتمامه، عليك التحرّك بسرعة...».

شعرت «سيرا» بعد برهة بالضياع. وراقبتهما وهما يبتعدان ويختفيان في

www.elromancia.com

الحشد. كانت «شيرل» طويلة جداً بالنسبة إلى امرأة. عند رؤيتهما جنباً إلى جنب، لاحظت «سيرا» أنهما ثنائي جميل، يليق أحدهما بالآخر. وقطع حبل أفكارها صوت «مارتن»:

ـ بما أنّك وصلت للتوّ، فأنت لم تأكلي بعد؟

ـ لا.

ـ في الوقت الذي نتعرف فيه إلى بعضنا بعضاً، لنذهب ونَرَ ما تقدمّه لنا مائدة الطعام.

وضع يده على خصرها ورافقها إلى الغرفة المجاورة.

أصر «مارتن» على مساعدتها في اختيار طبق من المقبلات، بكياسة بالغة أحرجت «سيرا»، قبل أن يختار طبقاً لنفسه.

شرعا في تناول طبقيهما، وراح «مارتن» يشير إلى عدة رجال اقترن اسمهم بالثروة والسلطة، وروى لها نوادر تتعلق بكل واحد منهم. كانت «سيرا» تضحك من إحداها حين ظهر «كير» إلى جانبها. استدارت نحوه بلهفة. وبدت ملامحه مشدودة بشكل غريب وهو يقول لها: «أبدى «كانيللي» اهتمامه بقطعة أرض قرب «سوهو». لذا، ستوصلنا «شيرل» إلى هناك. هل ستكونين بخير؟».

انفطر قلب «سيرا» من الألم، وقالت: «سأكون بخير». وحاولت ألا تبدو قلقة ومتوترة: «هل تعرف كم من الوقت ستغيب؟».

أمسك بيدها مؤكداً: «يتوقّف الأمر على الازدحام، وهو ما أخشاه. لكني سأعود بأسرع وقت ممكن».

قال «مارتن» بلطف ورقة: «إن لم تتمكن من العودة، سأحرص على إيصال «سيرا» إلى المنزل بأمان».

أجابه «كير» بنبرة رسمية: «شكراً لك، لكني أتوقع أن أعود باكراً».

بدا واضحاً أنه لم يكن سعيداً بتركها بصحبة «مارتن روثويل». لكن الأعمال تأتي أوّلاً. استدار ومشى مبتعداً عنهما. فتابع «مارتن» حديثه كما لو أن ظهور الرجل كان تطفلاً غير مرغوب فيه، وسألها بمرح: «والآن،

ماذا كنا نقول؟».

مرت العشرون دقيقة التالية وهما واقفان إلى جانب المائدة، حيث أولاها «مارتن» اهتماماً ورعاية تامين، وراح يمطرها بوابل من الأسئلة. أين تسكن...؟ ما الذي تحبه أكثر في نيويورك...؟ كيف ترى الحياة في الولايات المتحدة مقارنة بإنكلترا؟

بدا مهتماً جداً بسماع أجوبتها، وفاجأها أن تجده طيب المعشر، يسهل التكلم معه. وجعلتها إحدى ملاحظاته تسأله: «هل تعرف إنكلترا جيداً؟».

ـ إلى حدٍّ ما. فأجدادنا إنكليزيون، كما أني أمضيت و «شيرل» بعض الوقت هناك. وبعد أن أنهيت دراستي في الكلية، استقرّيت في لندن ثلاث سنوات تقريباً...

بالرغم من سحره وجاذبيته، كان ذائع الصيت كرجل أعمال عنيد. وتوقعت «سيرا» أن يعتذر منها ما إن ينهي طعامه، كي لا يضيّع المزيد من الوقت الثمين مع إحدى موظفاته. لكنّه بقي إلى جانبها، حتى بعد أن أنهيا طعامهما وشربا قهوتهما. فقامت هي بالمبادرة لعلمها أنه قد يضطرّ لمحادثة ضيوفه. فوضعت فنجانها بلطف على الطاولة وقالت:

ـ شكراً لك سيّد «روثويل». لقد استمتعت بوقتي فعلاً، وسرّني التحدث معك.

همّت بتركه، فأوقفها: «لا تذهبي...».

وضع يده على ذراعها، قائلاً: «... وأرجوك أن تناديني «مارتن» خارج المكتب».

وتابع: «هيا، جربي ذلك. ليس الأمر بهذه الصعوبة. «مارتن».

فرددت وراءه: «مارتن».

ـ لا بأس بذلك. كل ما تحتاجينه الآن هو قليل من التدريب.

بقي ممسكاً ذراعها بيده وهو يضيف: «بما أنك أتيت إلى نيويورك منذ مدّة قصيرة، فلا بد أنك لا تعرفين العديد من الناس هنا».

ـ لا.

ـ دعيني إذن أعرفك ببعض منهم.

ـ أعتقد أن مظهري ليس مناسباً لذلك.

جالت عيناه الزرقاوان على وجهها، وقال: «في ما يخصني، أرى أنك رائعة».

شعرت بالاضطراب وراحت تتمتم قائلة بتلعثم: «شكـ... شكراً. لكن «كير»، قد يعود قريباً...».

ـ إن هو عاد فعلاً، فسأسلمك له على مضض. حتى ذلك الحين، دعينا نتجول...

مدَّ لها ذراعه، فلفت يدها حولها حين لم تجد أمامها خياراً آخر. شعرت بالانزعاج في البدء، لكنها بعد قليل من الوقت، فوجئت بنفسها مسترخية تتمتع بهذه التجربة الخيالية. فكانت، إلى جانب الرئيس الأول للشركة، تقابل بنوع من الإجلال والاحترام جعلها تبتسم شاكرة ممتنة.

راحا يتنقلان من مجموعة إلى أخرى، ثم توقفا عند أحد الأشخاص ممن يدعوهم «مارتن» بالضيوف «الأكثر أهمية». وكان يقدمها إليهم باسم «الآنسة رينولدز، زميلة إنكليزية».

وحين كان يتحوّل الحديث إلى الساحة المالية، كان «مارتن» يشركها في كل مناقشة، فيسألها رأيها ويعاملها كندّ له.

أصبحت الأمسية التي تاقت إليها كثيراً برفقة كير، أمسية مثيرة وممتعة بالرغم من غيابه المستمر عنها. عندما قاربت الساعة الحادية عشرة، بدأ الناس بالانسحاب رويداً رويداً. ووجدت نفسها تودّع ضيوف «مارتن» وتتمنى لهم ليلة سعيدة، كما لو أنها مضيفته.

كانت الحفلة تقترب من نهايتها، دون أن يظهر «كير» و «شيرل» بعد. آه، ما الذي يؤخرهم بحق السماء؟ تمكن «مارتن» على ما يبدو من قراءة تعابير وجهها المضطربة، فقال:

ـ لا يبدو أنهم سيعودون.

ـ لا.

بدت المفردة الوحيدة بنبرتها اليائسة مختلفة عما أرادت «سيرا» إظهاره.

ـ في هذه الحال، سيسرني جداً أن أوصلك إلى منزلك.

كانت تعلم أنه وشقيقته يقطنان في شقة في شارع «فيفث آفينيو»، فرفضت عرضه بسرعة:

ـ شكراً لك. ما من داع حقاً لذلك.

سألها كما لو أنها لم تتكلم أو تقل شيئاً: «أين تقيمين؟».

أخبرته وأضافت بحزم: «بإمكاني استدعاء سيارة أجرة بسهولة تامة».

ـ لا أريد أن أسمع هذا. فالوعد حق. وقد تم إهمالك بما يكفي لهذه الليلة.

لم يهملها هو، لا. رغم أنها ليست سوى موظفة عادية. وهو، مضيف الحفلة التي أُعدت خصيصاً بهدف الأعمال، فقد قام بوضع مصالحها في المرتبة الأولى قبل الأعمال. أما «كير»...

أبعدت الفكرة الخائنة عن رأسها مباشرة، لكن شعوراً مزعجاً وجد طريقه إلى نفسها.

وضع يده تحت مرفقها وسألها: «هل لديك معطف؟».

هزت رأسها بالنفي.

ـ إذن، هيا بنا نذهب.

حين استقرّت داخل سيارة الليموزين الفضية اللون، صعد «مارتن» إلى جانبها وسألها: «هل شاهدت نيويورك في الليل؟».

ـ ليس تماماً.

فقد أمضت معظم الليالي في غرفتها تنتظر «كير».

ـ إذن، يجب أن تري ساحة «التايمز» وأضواء «برودواي».

أنزل الزجاج الفاصل، وأعطى السائق عنوانها قبل أن يقول له: «إذهب إلى «برودواي» كارلسون، من فضلك».

وراح يشرح لـ «سيرا»: «برودواي جميلة جداً. أعتقد أنك لم تشاهدي

www.elromancia.com

أحد عروض برودواي بعد؟».

ـ لا. لكني آمل ذلك بالتأكيد. هل من الصعب الحصول على بطاقات؟

ـ هذا يتوقف على العرض الذي اخترتيه.

أشارت إلى أحد العروض الحديثة، وفوجئت به حين قال:

ـ سأرى ما الذي أستطيع فعله.

ـ آه، لكن... لكني لم أكن أعني...

مال نحوها ووضع إصبعه على شفتيها قائلاً: «أعلم ذلك. لكن سيسرني الاهتمام بالأمر».

حين بلغا مبنى «براونستون» في شارع «كوارلز»، خرج «مارتن» من السيارة معها. رمقت الطابق الأخير بنظرة خاطفة ورأت نوافذ شقة «كير» معتمة، فعلمت أنه لم يعد بعد إلى المنزل. تذكّرت اهتمام «شيرل» الواضح به، فشعرت بانزعاج بسيط. ثم أدركت أن «مارتن» كان واقفاً في انتظارها وهو يمسك بيدها. وقالت:

ـ شكراً لك على كل شيء. كنت في غاية اللّطف.

أخذ يدها ولفها حول ذراعه: «سأرافقك إلى أعلى».

ـ لكني أسكن في الطابق الأخير، وليس هناك مصعد.

ـ هل أبدو لك عاجزاً إلى هذا الحد؟

ـ لا، طبعاً، لكن، ما من داع لذلك حقاً.

ـ دعيني أنا أقرر ذلك.

رافقها وهي تصعد السلالم. حين بلغت أنفهما روائح الطهي المسائي من بصل وثوم وزيت مقلي وخضار... التي لا تزال عابقة في الهواء الساخن الكثيف، التفتت تنظر إليه، فرأته يحرك أنفه باشمئزاز وهو يسألها:

ـ كيف تستطيعين بحق السماء العيش في مكان كهذا؟

ـ ليس بهذا السوء حقاً. في الواقع، أنا أستمتع بالإقامة هنا.

لم تقل له إنها تشعر، مع «كير» إلى جانبها، كأن المكان يشبه الجنة من بعيد.

ـ ألم تقدم لك دائرة الموظفين أي مساعدة؟

ـ بلى. لقد عانوا مشقة كبيرة لمساعدتي.

ـ لا يبدو لي ذلك حقيقياً. سأرى إن كانوا عاجزين عن إيجاد مكان أفضل.

ـ الأسعار في نيويورك مرتفعة جداً. لن أستطيع تحمل كلفة مكان أفضل.

بدا الغضب على ملامحه لبرهة، ولاحظت أنه حين يعزم على القيام بشيء، لا يحب أن يعارضه أحد.

هز كتفيه مبتسماً وهو يقترح: «في هذه الحال، عليك أن تسألي «شيرل» زيادة راتبك».

حين بلغا باب غرفتها، شكرته «سيرا» مجدداً: «أنا ممتنة جداً لاهتمامك بي الليلة».

حدقت عيناه الزرقاوان بوجهها: «في هذه الحال، هناك أمر تستطيعين القيام به من أجلي». حين رآها تتجمّد خوفاً، قال بتهكم: «لا. ليس كما تظنين. فحين أريد منك شيئاً، سيكون الامتنان آخر ما أطلبه منك. صدقيني».

ـ أنا... أنا آسفة. ما الذي تريدني أن أقوم به من أجلك؟

ـ سأتناول الغداء مع «رالف كيسلير» وزوجته غداً. وهو غداء، في قسم منه اجتماعي، وفي القسم الآخر عملي، كانت «شيرل» ترافقني في مثل هذه المناسبات. لكنها الآن مرتبطة. سأحتاج إلى امرأة بجانبي تكون من الذكاء بحيث تخوض في موضوع الأعمال إذا أرادا سوياً البحث في ذلك. وتكون من المرح والكياسة بحيث تتولى الناحية الاجتماعية إن كانت السيدة «كيسلير»، راغبة في خوض مواضيع عامة. بعبارة أخرى، أرغب في أن تكوني مضيفتهم إلى جانبي.

ـ يسعدني ذلك.

كانت لا تزال تؤنب نفسها على سوء فهمها وحماقتها، ثم أضافت

www.elromancia.com

بتردد:

- لكني في الواقع لا أملك أي شيء ملائم لأرتديه.

- لا تقلقي. إرتدي أي شيء. آه، ولا تزعجي نفسك بالذهاب إلى المكتب في الصباح. سأمرّ لآخذك من هنا عند الساعة الحادية عشرة تقريباً. تصبحين على خير «سيرا».

- تصبح على خير.

شعرت بالدوار وهي تنظر إليه يستدير وينزل السلالم بسرعة. كانت مستنفرة كل دفاعاتها دون وعي منها، حين توقعت أن يحاول تقبيلها، فقد حدثتها غريزتها أنه يسعى إلى ما هو أبعد من علاقة رئيس بموظفته، رغم معرفته بوجود «كير».

لكن، بما أن الخبرة تنقصها في مثل هذه الأمور، قد تكون أخطأت في قراءة الأحداث.

حسناً، إنه غداء عمل ارتبطت به. ومن الآن فصاعداً، ستلتزم جانب الحذر الشديد.

نظفت وجهها وغسلت أسنانها في حجرة الحمام الصغيرة، وهي تحاول التقاط أي صوت يشير إلى عودة «كير»، دون جدوى. حين انتهت أخيراً من تحضير نفسها وآوت إلى الفراش، تركت المصباح مضاءاً، آملة في أن يطرق بابها عند عودته حين يعلم أنها لا تزال مستيقظة.

* * *

٣ - رحل الحب... بقيت الكبرياء!

راحت «سيرا» تصحو ببطء وعلى مضض. كان المصباح لا يزال مضاءاً في غرفتها، لكنه صار الآن باهتاً تحت تأثير أشعة الشمس المتسللة من خلف الستائر. شعرت بالانزعاج والقلق، ولم تعرف السبب.

مرت دقيقة قبل أن ينجلي الضباب من رأسها وتستعيد من ذاكرتها أحداث الليلة السابقة. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل حين استسلمت لنوم عميق، ولم يكن «كير» قد عاد إلى شقته بعد.

ألقت نظرة على ساعة يدها لتجدها قد قاربت العاشرة والنصف. كان «مارتن» سيمر لاصطحابها عند الحادية عشرة. انتفضت خارجة من سريرها، وادثرت بعباءة بسيطة. تركت باب غرفتها مفتوحاً قليلاً وتسللت إلى الخارج لتقرع على باب «كير». لم تلق جواباً. هل عاد ثم ذهب ثانية؟ أم أنه لم يعد إطلاقاً؟

لكن أي رجل متفان في عمله مثل «كير»، لا يقضي الليل بطوله في العمل. ما الذي كان يفعله إذن؟

وإذا بصورة «شيرل»، بوجهها الجميل وجسدها الأخاذ، تصافح ذهن «سيرا» فجأة ودون سابق إنذار. ثم تذكرت فجأة أيضاً ما قاله لها «كير» في ذلك اليوم في غرفتها: «لو أنها علاقة عابرة بعيدة عن الحب والزواج، لكان الأمر مختلفاً...».

لم تفكر حينها بتلك الكلمات عن كثب، ولم تتنبه لما يمكن أن تعنيه

www.elromancia.com

بالنسبة إليه.

لم يعدها بالإخلاص لها، كما لم تطلب هي شيئاً من ذلك. فقد ظنت أن الحب الذي يكنه لها كاف لجعل الأمور في أحسن حال بينهما. لكن، هل هذا صحيح؟

أدمت هذه الأفكار قلبها المنفطر، فابتعدت عن بابه وهرولت مسرعة إلى غرفتها لكي تستحم وتستعد للقاء «مارتن». ألقت نظرة على نفسها في المرآة المعلقة على الحائط، ولاحظت أنها تبدو شاحبة ويائسة. فتبرجت ورفعت شعرها الأسود وعقصته على قمة رأسها بشكل أنيق.

لم يكن لديها من الثياب ما يتلاءم والمناسبة هذه، فارتدت بلوزة بيضاء وتنورة رمادية وسترة باللون نفسه، وحذاء رمادياً قاتماً. تناولت حقيبتها، حين سمعت طرقاً على الباب.

قد يكون «كير». أسرعت وفتحت الباب، فأُصيبت بخيبة أمل حين رأت «مارتن» واقفاً أمامها. بعدما رأى النور يخبو من وجهها، سألها بتهكم: «أكنتِ تنتظرين شخصاً آخر؟».

ـ لا.

رفع حاجبه الأشقر قائلاً: «إذن، لم تعجبك ربطة عنقي؟».

بذلت جهداً كبيراً وهي تجيب بخفة: «على العكس، أنا أحبها».

ـ في هذه الحال، قد لا أنزعها أبداً.

راقب الغمازتين على وجنتيها وسأل: «جاهزة للانطلاق؟».

أشارت إلى ثيابها وتساءلت: «هل تفي هذه الثياب بالغرض؟».

أدار شفتيه بلامبالاة وهو يجيب: «لا بأس بها، لكنها شبيهة جداً بزي المكتب بالنسبة إلى هذا النوع من المناسبات شبه الاجتماعية».

ـ أخشى أني لا أملك ما هو مناسب أكثر.

ـ يمكن معالجة هذا الأمر سريعاً. سنتوقف عند محلات «بارون كونتي».

قالت بحدة: «لا».

تجمدت عيناه الزرقاوان في محجريهما، وهو يقول: «في الواقع، نحن سنشتري زي العمل. فلو كنتِ عاملة تنظيفات، وقدمت لك الشركة وزرة، أعتقد أنك ما كنتِ لتعترضين؟».

ـ لا. لكن...

ـ إنها مسألة عمل. أنتِ تؤدين عملاً للشركة، ستتقاضين أجراً لقاءه. وأنتِ بحاجةٍ لتأديته بملابس أنيقة. لستِ مضطرة للاحتفاظ بالملابس في ما بعد إن كنتِ لا تريدين ذلك.

عضت شفتها السفلى في حرج. قد تكون هذه الأمور عادية جداً ومتبعة. ربما بالغت في تضخيم الأمور من دون أي سبب.

ـ ما رأيكِ؟

ـ حسناً. إن كان لدينا متسع من الوقت.

ـ لدينا الكثير من الوقت. لن نقابل آل «كيسلر» قبل الساعة الواحدة.

إذا كان الغداء لا يبدأ قبل الواحدة ظهراً، فلم أتى لاصطحابها باكراً جداً؟ إلاّ إذا كان مصمماً على هذا منذ البدء؟ تذكرت فجأة ما قاله في الليلة السابقة: «لا تقلقي. إرتدي أي شيء». علمت مخططه منذ البدء وشعرت بخشية لإدراكها ذلك، وراودتها الشكوك في تلاعبه بها.

حين بلغا محلات «بارون كونتي»، نزلت «سيرا» من السيارة. وإذا بها تسمع «مارتن» يأمرها: «إشتري ما أنتِ بحاجة إليه وسجليه على حساب الشركة. الثمن ليس مهماً».

سألته في حيرة: «لكن، أيُّ نوع من الثياب ينسجم مع هذه المناسبة؟».

ـ سأدع هذا الأمر لذوقك الرفيع. لكن، إحرصي على اختيار زيٍّ كامل، لدي الآن بعض الأعمال. سآمر لاصطحابك بعد نحو ساعة من الآن.

بعد ما يقارب الخمسين دقيقة، كانت ثياب «سيرا» موضبة في علبة سوداء وذهبية. خرجت «سيرا» من المحل في جادة «فيفث آفينيو»، وصعدت إلى سيارة الليموزين التي كانت بانتظارها.

www.elromancia.com

كانت ترتدي بذلة رسمية. لكن تصميمها ولونها وقماشها الحريري كل ذلك جعلها تبدو بوضوح صارخ بعيدة كل البعد عن البذلة التي كانت ترتديها في البدء.

طافت عيناه عليها، وقال معبراً عن إعجابه بذوقها: «تبدين امرأة بمليون دولار...».

خطر لها أنها بجوربيها الشفّافين وحذائها اليدوي الصنع، كانت تشعر بنفسها كامرأة بمليون دولار.

ـ رغم أني أفضل أن لا تضعي هذا. فهو لا يتلاءم مع الزي.

قبل أن تتكهّن بنواياه، أمسك يدها اليسرى وانتزع الخاتم من إصبعها ليضعه في جيبه.

مدّت «سيرا» يدها، وهي تقول بنبرة عادية: «أرغب في أن تعيد لي خاتمي. أرجوك».

حين رأى شرارات الغضب تتطاير من عينيها الخضراوين، التقط الخاتم من جيبه ورماه في راحة يدها الممدودة. وضعته في حقيبتها بحذر، قائلة: «شكراً لك».

ـ ليس خاتم خطوبة، بالطبع؟

ـ إنه ذكرى.

ألم يدعه «كير» كذلك؟ لقد فكرت به كخاتم خطوبة، لكنها حين عادت بذاكرتها إلى الوراء، علمت أن «كير» لم يفكر بالطريقة نفسها. كان كل ما قاله: «ربما لا ينبغي أن تضعيه لوقت طويل، فقد يصبغ إصبعك باللون الأخضر». وحين قالت إنها ستخاطر، أضاف قائلاً: «في يوم من الأيام ـ آمل ألا يكون بعيداً ـ سأشتري لكِ شيئاً أغلى ثمناً بكثير، من محلات «تيفاني»...».

لقد كان وعداً عادياً، يستطيع حفظه أو تجاهله. ولم يرتبط بأي التزامات من أي نوع، مهما يكن ما توقعته هي منه.

ـ مجرد ذكرى.

تمكنت من رسم ابتسامة مكرهة بالرغم من نبرة صوتها المرتجفة. ثم تبين لها أنهما متجهان نحو «راندز»، وهو مطعم هادىء يقع بالقرب من جادة «ماديسون».

جلسا ينتظران في الردهة لبعض الوقت، إلى أن وصل ضيفا «مارتن».

كان «رالف كيسلر» رجلاً هادئاً ومتواضعاً، بينما كانت زوجته شقراء الشعر، ممتلئة الجسم بالغة الأناقة. كما لاحظت «سيرا» أنها امرأة ودودة وثرثارة جداً.

ما إن بدأ الرجلان بمناقشة الأعمال، حتى شرعت «آمي كيسلر» بالحديث عن الثياب.

ـ لقد أعجبتني بذلتك. قماشها جميل، كما أني أحب هذا اللون الليلكي.

كانت المرأة تشرح بالتفصيل لـ «سيرا» الألوان التي تناسبها أكثر من غيرها، وكيف تنسّق خزانة ملابسها، حين صدف أن رفعت «سيرا» نظرها... وجمدت أوصالها.

كان «كير» يجلس مع «شيرل» إلى طاولة في الجهة الأخرى من المطعم. وبالرغم من الحاجز المنقوش والمزدان بالورود الذي كان يحجبهما بعض الشيء، ما كانت لتخطىء في التعرف إلى هذين الرأسين، الداكن الوسيم والأحمر البرّاق.

كانا يميلان أحدهما نحو الآخر، ويتجاذبان أطراف الحديث بنوع من الحميمة. وفيما كانت «سيرا» تراقبهما وهي تشعر بدمها ينزف حتى الموت، مدت «شيرل» يدها وأمسك بها «كير».

أشاحت «سيرا» بنظرها بعيداً، في محاولة جاهدة للتركيز على وجه «آمي كيسلر» المتقن التبرج. لكنها لم تكن ترى سوى «كير» وهو ممسك بيد «شيرل» محدقاً في عينيها.

أدركت فجأة أن الشقراء الجالسة أمامها قد توقفت عن الكلام. وآلمها الشعور بالذنب لعدم سماع كلمة مما قالت، فبادرت بسؤالها: «إذن، هل

تفضلين لوناً معيناً، سيدة كيسلر؟».

ـ آه، اللون الزهري بلا ريب. فهو لون يبرز الجمال والجاذبية. أنا أقول دائماً لـ «رالف»، إني لم أعد في العشرين من العمر...

لم تستطع «سيرا» التحكم بنفسها، وتركت عينيها تتجهان نحو الطاولة التي يجلس إليها «كير» و «شيرل». وكانت خالية.

ما إن انتهى الغداء، حتى اعتذر «رالف كيسلر» وهو يقف معلناً أنه مضطر للذهاب إلى موعد في الساعة الثالثة: «كان الغداء ممتعاً جداً».

كررت زوجته بالنبرة نفسها: «ممتع جداً». ورمقت «سيرا» بنظرة ودية. فقال «مارتن»: «علينا إذن أن نكرر هذا الاجتماع غالباً».

تصافحا وغادر الزوجان «كيسلر»، يداً بيد. وإذا «بمارتن» يقول: «كان اجتماعاً ناجحاً جداً».

سكب المزيد من القهوة له ولـ «سيرا»، وأضاف: «رغم أنك لن توافقيني الرأي، إلا أن «آمي كيسلر» امرأة أعمال صلبة وناجحة جداً، في حين أن زوجها يعد من أذكى رجال الأعمال في سوق الأسهم».

كانت «سيرا» لا تزال منشغلة بما رأته منذ وقت قصير، فعبرت عن أول ما خطر في ذهنها: «يبدوان متيمين أحدهما بالآخر».

ـ أظن أنك على حق. فهما متزوجان منذ عشرين عاماً، ما يعتبر رقماً قياسياً في هذا الزمن.

ـ تبدو متشائماً بعض الشيء.

ـ بسبب زواجي السابق. لقد كنت فتياً جداً في ذلك الوقت، فلم يدم سوى ستة أشهر. أعمى جمال «ليندا» بصيرتي، وتطلب الأمر مني كل ذلك الوقت لكي أدرك أنها لم تكن إلا ساقطة أنانية، لا تملك شخصية أو فكراً.

لم تعرف «سيرا» ما تقوله، فأكملت قهوتها بصمت. وقف «مارتن» وهم بسحب كرسيها وهو يقول: «والآن، ماذا ستفعلين في ما تبقى من النهار؟».

ـ سأذهب مباشرة إلى المكتب. أستطيع تبديل ملابسي هناك، و...

هزّ «مارتن» رأسه قائلاً: «إنها تقارب الثانية والنصف من بعد الظهر. لا أرى سبباً يدفعك للذهاب إلى المكتب في هذا الوقت المتأخر من يوم الجمعة».

ـ آه، لكن الآنسة «روثويل» قد...

ـ لن تكون «شيرل» هناك. كانت ستأتي إلى «باين كوف» معي، لكنها أعلمتني في وقت مبكر أن لديها خططاً أخرى لعطلة نهاية الأسبوع... إنه الرجل الذي تخرج معه مؤخراً، على ما أعتقد... سيقومان بعملية فرار رومنسية، بعيداً عن الناس في «كاتسكيلز».

صعقت الصدمة «سيرا» فاضطرت للجلوس بشكل مفاجيء على أحد الكراسي. بدا كأن قلبها توقف عن الخفقان ورئتيها رفضتا العمل. فشعرت بنفسها عاجزة عن التنفس، وراحت تختنق رويداً رويداً.

بعد أن أوضح لها عدم استعداده لإقامة أي علاقة معها لضيق وقته، ها هو الآن يذهب بصحبة «شيرل» لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معاً.

بدا «مارتن» قلقاً بشأنها وهو يسأل: «هل أنت بخير؟».

سحبت نفساً عميقاً، وأجابته بنبرة شبه عادية:

ـ نعم، شكراً لك. إنه مجرد دوار بسيط. لا بد أن السبب هو الطعام. فأنا لست معتادة على الإكثار منه في هذا الوقت.

ـ تبدين شاحبة جداً.

ـ أصبحت بخير الآن.

ـ سأقلك إلى البيت إذن.

لم تكن مستعدة للنقاش، فوقفت على قدميها راجية أن تحملها ساقاها، وشقت طريقها إلى الخارج.

كانت سيارة الليموزين الفضية تنتظرهما في الخارج، فقفز «كارلسون» منها ليفتح لهما الباب. حين صعد «مارتن» إلى جانبها، سألها بهدوء: «ما هي مشاريعك لعطلة نهاية الأسبوع؟».

ـ ليست لدي أي مشاريع.

نظر إلى وجهها بعينيه الزرقاوين وأهدابهما الشقراء، ثم قال:

ـ ما رأيك في مرافقتي إلى «لونغ آيلند»؟ لدي منزل في «هامبتونز».

رآها «مارتن» تتصلب قليلاً: «لا. لست أقترح أي شيء مما يدور في ذهنك. أنا أدعوك فحسب للانضمام إلى الحفلة في «باين كوف». لقد اعتذرت «شيرل» عن الحضور، لذا، فإن مجيئك سيملأ الفراغ...».

لم تكن المناسبات الاجتماعية تستهويها كثيراً... وأنى لها أن تحتمل المشاركة في هذه الحفلة، في حين أن روحها كانت تنزف حتى الموت؟

أضاف «مارتن» مداعباً: «لست مضطرة حتى للتحدث إليّ إن لم تريدي ذلك. فستجدين أشخاصاً آخرين في مقتبل العمر ممن يسرك التكلم معهم...».

لن يؤدي ذلك إلا إلى زيادة آلامها. فإن رؤية أزواج آخرين سعداء بعضهم مع بعض، سيجعل من المتعذر عليها إخفاء تعاستها وآلامها المبرحة...

رأى «مارتن» تعابير وجهها وعلم أنها تفكر برفض الدعوى. فتدارك الأمر قائلاً: «لم لا تحاولين؟ فليست لديك أي مشاريع للعطلة. لذا، لن تخسري شيئاً؟».

لن تخسر شيئاً؟ إن هي فكرت بهذه الطريقة، تجد أنه على حق. أدركت أنها لن تكون سعيدة هناك، لكن البديل سيكون أسوأ بكثير. فإن لم تذهب، ستجد نفسها وحيدة، تفكر في «كير» في حضن امرأة أخرى. سيكون ذلك أليماً للغاية.

حسمت أمرها بسرعة وقالت: «شكراً لك. أنا أرغب حقاً في المجيء».

بالرغم من محاولة «مارتن» اليائسة لإخفاء مشاعره، إلا أنها تمكنت من رؤية بريق النصر والفرح يشع على وجهه وهو يقول: «هذا جيد. سنمر بمنزلك لكي تحضري ما يلزمك. كم من الوقت يتطلب منك توضيب أغراضك؟».

ـ بضع دقائق فقط.

ـ بإمكاننا إذن بلوغ الطريق السريعة المؤدية إلى «لونغ آيلند» قبل أن يزدحم السير...

لقد ارتبطت بوعدها. وظلت صورة وجه «مارتن» بملامحه المزهوة المنتصرة حاضرة في ذهنها، فترددت قليلاً. كانت تعلم أنه معجب بها، وكان عليها التحلي بالشجاعة والقوة لرفض الدعوة.

كانت تفضل الحفاظ على علاقة عمل صرفة مع «مارتن روثويل» والتعامل معه كرئيس لها في العمل فقط.

تنهدت في نفسها، ثم قررت أن تراقبه خلال العطلة عن كثب. فإن أظهر أي تودد غريب، ستضطر إلى إعلامه بحزم بأن لا نية لديها في إقامة علاقة معه أو أي شيء آخر مما قد يدور في ذهنه.

خلال الحفلة، لم تستطع «سيرا» أن تلاحظ أي خطأ في تصرف «مارتن» معها. فلم يحاول استدراجها للبقاء وحيداً معها، أو الضغط عليها بأي شكل من الأشكال. لكنه عاملها بالرقة والمرح نفسيهما اللذين أظهرهما أمام سائر ضيوفه.

لاحظت «سيرا» أن كل الموجودين في الحفلة كانوا لطفاء ودودين. وكما قال «مارتن»، لقد سرها التكلم معهم. ولو أنها لم تكن تشعر بيأس شديد، لكانت أمضت العطلة بسعادة عارمة. لذلك، انتظرت بفارغ الصبر قدوم مساء يوم الأحد، لكي تنفرد بنفسها وتحاول تضميد جراحها.

كان الطقس جميلاً جداً، فظلوا حتى وقت متأخر يتسكعون حول بركة السباحة، قبل أن يعودوا أدراجهم. كان ازدحام السير خانقاً، ولم يصلوا إلى مبنى «براونستون» حتى الساعة العاشرة ليلاً.

حين سلمها السائق حقيبتها، نظرت إلى نافذة «كير» المعتمة، وفكرت أنه لم يعد بعد إلى شقته كما يبدو.

خرج «مارتن» من السيارة، لكنه هذه المرة لم يحاول مرافقتها حتى باب غرفتها. فوقفت في الممر الجانبي وشكرته على هذه العطلة الممتعة. أخذ يدها برفق قائلاً: «لقد استمتعت كثيراً برفقتك».

وقبل أن تتكهن بنواياه، انحنى إلى الأمام وطبع قبلة على جبينها، وأضاف: «ليلة سعيدة، «سيرا»، أتمنى لك نوماً هنيئاً».

بعد برهة، ابتعدت سيارة الليموزين الفضية وتوارت في الظلام.

يبدو أنها أساءت التكهن بنواياه في النهاية، راحت تصعد السلالم وهي تستعرض في ذهنها تصرفاته معها خلال عطلة نهاية الأسبوع التي لم تدل على شيء آخر سوى أنه مضيف مميز. لا شيء أكثر أو أقل من ذلك...

لقد قبلها على جبينها، لكنها كانت قبلة بريئة، تشبه إلى حد بعيد القبلة التي طبعها بتودد مماثل على جبين سائر الضيفات الأخريات...

كان الضوء خافتاً أمام باب غرفتها، فأطرقت رأسها تبحث عن مفاتيحها في الحقيبة. كادت تبلغ الباب، حين لاحظت شخصاً متكئاً عليه. استقام «كير» في وقفته وسألها: «أين كنتِ بحق السماء؟ كنت قد بدأت أقلق بشأنك».

تنهدت «سيرا» وأوقعت المفاتيح من يدها بارتباك. انحنى «كير» يلتقطها، وفتح الباب على مصراعيه، ولحق بها إلى الداخل. قالت بصوت خافت: «اعتقدت أنك لم تكن هنا. فالنور في غرفتك لم يكن مضاءاً».

ـ آه، بلى. لقد كنت هنا.

رغم أنه تكلم بصوت هادىء، إلا أنها لاحظت التوتر على فمه وأدركت أنه يحاول جاهداً كبح جماح غضبه. راح الأمل يداعب أفكار «سيرا» بأن تكون مخطئة بشأن «شيرل»، فسألته:

ـ هل كنت في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع؟

ـ لا. كنت في رحلة عمل.

ـ أين؟

ـ في «كاتسكيلز».

هي لم تخطىء إذن. راقبها وهي ترمي بحقيبة السفر الصغيرة على السرير. وأضاف بحدة: «لم تجيبي عن سؤالي. أين كنتِ؟ وقبل أن تلجأي إلى الكذب، دعيني أقول لكِ إني رأيتك للتو تخرجين من سيارة

«روثويل».

صاحت به بغضب: «لا نية لدي في الكذب. لكن، ليس من شأنك أن تعرف أين كنت».

أمسك كتفيها بشدة، وسألها من جديد: «قولي لي، «سيرا».

رفعت ذقنها عالياً وأجابت: «حسناً. لقد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في منزل «مارتن» في «لونغ آيلند».

ـ هل تعرفين سمعته؟

ـ لا تهمّني السمعة التي يتمتع بها.

أحكم «كير» قبضته على كتفي «سيرا»، وهزها قائلاً: «لا تتحامقي «سيرا». إنه رجل خطير. وأنت لا تزالين فتية وبريئة جداً لكي...».

التفتت بسرعة وتحررت من قبضته لتصحح له خطأه قائلة: «قد أكون فتية، لكني لم أعد بريئة تماماً... على أي حال، كان هناك ضيوف آخرون كثر. كما أن «مارتن» تصرف بتهذيب بالغ».

ـ رأيته يقبلكِ.

ـ لقد قبل كل ضيفاته بهذه الطريقة.

أضاف «كير» بهدوء منذر بالسوء: «وهل اشترى لهن جميعاً الثياب أيضاً؟ أم ستقولين إنك أصبحت فجأة قادرة على شراء هذه الثياب الباهظة الثمن؟».

ـ لا، لا أستطيع شراء مثل هذه الثياب.

ـ إذن، ماذا فعلت لكي تستحقي هذه الهدية؟

رفعت يدها بقوة وصفعته على وجهه. فأمسك بمعصمها وقال محذراً: «لا تحاولي قط بعد اليوم تكرار هذا».

ـ إذن، لا توجه إليّ الإهانة. لو أني قمت بشيء مما يدور في ذهنك، لما انتظرت أي مقابل.

ـ هل فعلتِ شيئاً، «سيرا»؟ بربكِ، قولي إنك لم تفعلي.

ـ وماذا فعلتَ أنتَ مع شيرل»؟

ـ لا أرى علاقة بين الأمرين.

ـ ولا أنا أيضاً! ما شأنك في ما أفعله.

أخذ يديها بين يديه، وقال بنبرة راجية: «أرجوك، سيرا، أصغي إلي. ظننت أننا كنا متفاهمين...» وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يتابع: «أرى أنك لم تشائي المخاطرة».

كانت ثورة «سيرا» عنيفة جداً، فلم تدرك ما قصده وسألت: «المخاطرة بماذا؟».

ـ بأن يتحول لون إصبعك إلى الأخضر. يقولون إن «روثويل» رجل كريم. لذا، إن عرفت كيف تلعبين لعبتك، ستتمكنين من انتزاع حجر ألماس منه بحجم التفاحة».

أفلت يديها بقسوة واستدار على عقبيه ليغلق باب الغرفة وراءه بهدوء وحسم. شعرت «سيرا» بالتعب والاضطراب، فوقفت في مكانها لا تحرك ساكناً، وهي تحدق بالباب. هل كانت النتيجة ستختلف لو أنها ما تزال تضع خاتم «كير» في إصبعها؟

لكن، كيف ذلك؟ إن انتزاعها خاتم «كير» من إصبعها لم يغير شيئاً في كيفية إمضائه عطلة نهاية الأسبوع. كيف يستطيع أن يكون بهذا القدر من النفاق، وبهذه الازدواجية في المواقف والمعايير؟ هل كان يتوقع منها فعلاً أن تجلس في انتظاره بهدوء في غرفتها، بينما يذهب هو بصحبة امرأة أخرى إلى «كاتسكيلز»، ثم يقسم أنه كان في رحلة عمل؟

لكن ما آلمها أكثر من أي شيء آخر، هي الطريقة التي حاول بها تغطية خطئه وتبريره عبر اتهامها هي بارتكاب الخطأ. لقد ساهم ذلك في تعزيز كل شكوكها السابقة وتأكيدها. من الجلي أنه لم يكن يأبه بها أو يكترث لأمرها. كل مشاعرها تثبت هذه الحقيقة.

ألَمّ بها شعور بالحزن والأسى، بالمرارة والغضب. فرمت بذلتها الحريرية بلا مبالاة على الكرسي واستلقت على سريرها تستعيد كل الأحداث المؤسفة وتستعرض أسبابها، حتى ساعات الصباح الباكرة.

حين استيقظت من نومها، كانت تفاصيل الشجار مع «كير» في الليلة السابقة تملأ رأسها. لكنها ألفت نفسها وقد تغير موقفها بطريقة ما أثناء نومها.

استعادت ذاكرتها كلمات «كير»: «كنت قد بدأت أقلق بشأنك». وعلمت أنها أساءت الحكم عليه. من المحتمل أنه لا يحبها، لكنها أخطأت حين ظنت أنه لا يكترث لأمرها قط. فمما لا شك فيه أن قلقه وغضبه من اجتماعها بـ «مارتن» أدخلا البهجة والسرور إلى قلبها.

إذن، إن لم يكن جاداً بشأن «شيرل»، وإن شرحت له سبب شرائها للبذلة الحريرية والدافع وراء قبولها دعوة «مارتن»، قد تكون الفرصة لا تزال سانحة لإعادة الأمور إلى نصابها وإزالة أسباب الخلاف بينهما.

لم يساورها شك في أن «كير» هو الرجل الوحيد الذي تحلم به، والوحيد الذي قد تهب له قلبها وروحها. فإن هو شعر بالحاجة لامرأة تحبه، فإن جل ما يسعدها هو أن تهبه حبها ورعايتها وصبرها إلى أن تتحسن أحواله ويصبح قادراً على الزواج بها.

كل ما عليها فعله ربما هو إعلامه بذلك. نظرت إلى ساعتها لتجد أنها تقارب السادسة والنصف، فقفزت من السرير بسرعة وارتدت عباءتها، وذهبت تقرع بابه. لم تلقَ جواباً!

كان صباح ذلك اليوم مشرقاً دافئاً. لعله خرج في رياضته الصباحية المعتادة. عادت إلى غرفتها وأخذت حماماً سريعاً وارتدت ثيابها على عجلة قبل أن تهرع إلى الخارج وتتجه إلى المتنزه القريب حيث يتمشيان عادة.

راحت تهرول بخطى سريعة عصبية واتجهت نحو الطريق المعتادة. وبدأت من الاتجاه المعاكس لاحتمال أن يكون عائداً إلى منزله. لكنها لم تجد أثراً للرجل الذي تبحث عنه بشغف.

كانت عائدة إلى مبنى «براونستون» مطرقة الرأس بخيبة أمل، حين رأته يخرج من الباب الأمامي. راحت دقات قلبها تتسارع وهي تحث الخطى إليه.

توقف «كير» على الرصيف أمام المبنى، وإذ بسيارة فخمة بيضاء تركن

أمامه. مالت المرأة وراء المقود نحوه، وهي تلوّح له بيدها من النافذة المفتوحة. رأت «سيرا» شعرها الأشقر المائل إلى الحمرة يلمع بوضوح تحت أشعة شمس الصباح.

رفع يده بالتحية قبل أن يتقدم منها وهو يتمتم بكلمات لم تستطع أذنا «سيرا» التقاطها من تلك المسافة البعيدة. ثم فتح باب السيارة الأمامي وجلس على المقعد إلى جانبها.

بعد برهة، انطلقت السيارة بهدوء وتوارت عن الأنظار أسفل الشارع الرئيسي. تبعتها «سيرا» بعينيها وهي تشعر بقلق واضطراب لم تستطع معهما الوقوف على قدميها. وراحت تتساءل عما إذا كانت قادرة على احتمال هذا القدر من الألم.

وقفت لبضع دقائق لا تحرك ساكناً، وجهدت بصعوبة لتمالك نفسها. يجب أن تشكر العناية الإلهية لأنها لم تجد «كير». فلو وجدته قبل هذه اللحظة، لكانت تصرفت بغباء تام يحط من قدرها. فبالرغم من الألم الذي يعتصر قلبها الآن، كانت كبرياؤها تزال مصانة. والكبرياء هي كل ما تبقى لها.

وصلت «سيرا» إلى المكتب بثيابها الأنيقة ورأسها المرفوع عالياً، فلم تجد أثراً لرئيسها هناك، ولم تتوقع أن تجد «شيرل» كذلك.

كانت «سيرا» جالسة إلى مكتبها منذ نحو نصف ساعة حين رن جرس الهاتف. تناهى لها صوت «شيرل» قائلة: «مرحباً. لم أكن عازمة على المجيء اليوم. أعلم أن هناك الكثير من الأمور التي يجب إتمامها. هل بإمكانك تحمّل المسؤولية؟».

جهدت «سيرا» لتتكلم بثبات وعزم وهي تجيب: «نعم، بالطبع. هل أنت مستعدة للمضي قدماً في تنفيذ اتفاق «جايمسون»؟».

ـ نعم. لكن أوقفي اتفاق «دولاند بارك». أريدهم أن يقلقوا بعض الشيء. وإن طرأ أمر خطير تشعرين معه أنك عاجزة عن التصرف، بإمكانك الاتصال بي على الهاتف الخلوي. سأراك غداً، أو بعد غد ربما إن تطورت

الأمور بشكل مفاجىء.

أقفلت «سيرا» سماعة الهاتف، ومرت أمام عينيها فجأة صورة «شيرل» و «كير» معاً في السرير. شعرت بالغثيان، لكنها تمالكت نفسها وعادت إلى متابعة العمل بجد وتركيز ساعداها على تخطي الأمر.

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً، حيث غادر معظم الموظفين، عندما فتح باب المكتب ودخل «مارتن». نظرت إليه دهشة. فهي تعلم أن «مارتن» لم يسبق له قط أن دخل هذا المكتب، بل كانت «شيرل» هي التي تذهب إليه في مكتبه.

قالت: «أظن أن الآنسة «روثويل» ليست هنا».

ـ أعلم ذلك. ما كان يجب أن أكون هنا أنا أيضاً. لكن مساعدتي غادرت بعدما شعرت بالتعب ولدي الكثير من العمل.

وأضاف بنبرة عادية: «أظن أن «شيرل» ذهبت إلى مكان ما مع «ساثرلاند»؟».

لم تنبس «سيرا» بكلمة، فراحت عيناه الزرقاوان تطوفان على وجهها الشاحب، قبل أن يتابع قائلاً: «هل أفهم أنها سرقته منكِ؟».

رفعت «سيرا» ذقنها عالياً وقالت بهدوء: «لم يكن لي أصلاً. كما أن أي امرأة لا تستطيع سرقة رجل لا يرغب في مرافقتها».

صفق لها «مارتن» معلقاً: «مرحى، حسناً قلتِ. أنا معجب بروحك ومعنوياتك... هل كنتِ عازمة على البقاء في المكتب لوقت طويل بعد؟».

ـ لا...

لم تكن في الواقع عازمة على البقاء. غير أنها لم تدر ما عساها تفعل في البيت، حيث لن تجد إلا الوحدة في انتظارها.

ـ كنت أنوي الذهاب ما إن أنتهي من هذا الملف.

ـ دعيه. تعالي لنتناول الطعام معاً، فلدينا الوقت الكافي. ثم نذهب لمشاهدة العرض المسرحي الذي أردتِ رؤيته.

اعترضت قائلة: «لكني لم أرتد ثياباً لائقة للخروج».

ـ تبدين بأفضل حال. هيا، تعالي.

كان «مارتن» رجلاً عنيداً لا يرضى قط بأن يواجه بالرفض إن كان مصمماً على أمر ما. شعرت «سيرا» بالإرهاق والاكتئاب الشديد، فلم تظهر أي مقاومة لعرضه. أخذت سترتها وحقيبتها وسارت أمامه خارجة من المكتب إلى باب المصعد.

في اليوم التالي، طلب من «شيرل» أن تستغني له عنها لبعض الوقت، بعد أن علم أن مساعدته الشخصية قد تغيب بضعة أيام. تقبلت «سيرا» الأمر بصدر رحب، وقد فضلت، نظراً للظروف، أن تعمل لديه بدلاً من العمل لدى شقيقته.

لاحظت «سيرا» خلال العمل أنه رئيس مثالي ـ فكان ودوداً بطريقة لا تخرج عن حدود العمل، وهادىء الطبع صبوراً، إضافة إلى تفهمه الدائم. ومما زاد من شعورها بالارتياح أنها لم تر «شيرل» إلا نادراً جداً. وعندما تبين أن مساعدة «مارتن» لن تتمكن من العودة إلى العمل، قبلت «سيرا» الحلول مكانها بشكل دائم.

كانت «سيرا» تستمتع كذلك بصحبة «مارتن» خارج ساعات العمل. فقد كان حلو المعشر بمرحه الدائم. ولم يحاول قط أن يلمسها أو يقبلها، لكنه عاملها كما لو أنها شقيقته الصغيرة المحبوبة.

وجدت «سيرا» نفسها محاطة برعاية خاصة واهتمام بالغ. فساعد ذلك في بلسمة جراحها العميقة. وقد رافقها مارتن إلى العروض والحفلات الموسيقية والنوادي الليلية والمطاعم الفخمة، ودعاها لحضور الحفلات التي يقيمها في منزله في نهاية كل أسبوع.

كانت ممتنة له حقاً، فقد ساعدها ذلك على ملء الفراغ الذي تركه «كير» في روحها وقلبها. وأقنعت نفسها بطريقة ما بأنها تستمتع بهذا كله.

لم يذكر اسم «كير» أمامها قط، ولم تره طوال تلك الفترة إلى أن جاء يوم كانت تهم فيه بالصعود إلى سيارة «مارتن»، فرأته يقف في النافذة ينظر إليها. ولكنه سرعان ما استدار واختفى عن نظرها.

في الأسبوع التالي، كان عيد مولد «مارتن». فذهبا لحضور أحد العروض ثم انتقلا إلى «سكاي ويندوز» للاحتفال بالمناسبة. بعد تناول وجبة شهية، أمسك «مارتن» يدها ورفعها حتى شفتيه ليقبلها وهو يقول بنبرة جدية بالغة: «أنا أحبك «سيرا». لقد وقعت في حبك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. هل تقبلين الزواج بي؟».

كم كان لطيفاً ورومنسياً، كم كان دافئاً ومحباً صادقاً... لكنها ترددت. فتابع قائلاً: «إن وافقتِ، سأكون أسعد رجل في العالم. وسأمضي ما تبقى من حياتي في إسعادكِ».

ـ نعم. أنا أقبل الزواج بك.

كما لو أنه حثها على الموافقة، خرجت الكلمات من فمها بسرعة، لتربطها بوعد واضح.

تصلبت ملامح وجهه، كأنه يجهد لكبح سعادته التي فاقت كلَّ احتمال. مدَّ يده في جيبه وأخرج منها علبة جلدية صغيرة وفتح غطاءها. بعد برهة، أدخل في إصبعها خاتماً ماسياً رائعاً، ثم قال: «لا تشعري بالحرج إن لم يعجبك. بإمكانك استبداله بشيء آخر متى تشاءين».

نظرت إليه في إصبعها وفكرت في الخاتم الفضي الذي اشتراه لها «كير»، فشعرت برغبة ملحة بالبكاء. لكنها ابتسمت في المقابل بإشراق وهي تقول: «إنه رائع».

ربما كانت تعلم في عمق أعماق قلبها أنها ما كان يجب أن تقبله...

***

سمعت أزيزاً مفاجئاً حين مرَّ أحد العدائين بسرعة من أمامها فانتزعها من عالم ذكرياتها بقسوة. قال «كير» باقتضاب، وهو لا يزال واقفاً إلى جانبها: «يا لهؤلاء الشباب. هل ارتطم بكِ؟».

ـ لا، لقد أخافني.

شعرت «سيرا» بالدوار، فطرفت بعينيها كمن استفاق لتوّه من نوم عميق، ولاحظت أنهما وصلا إلى نهاية المنتزه. فاستدارت نحو مرافقها،

وقالت بهدوء بالغ: «يجب أن أذهب».

انتزع «كير» عصابة رأسه ودسّها في جيبه، ثم مرر يده في شعره الأسود المجعّد قبل أن يقترح قائلاً: «دعيني أقدم لك القهوة. هناك مقهى خلف الزاوية يفتح في الساعة السادسة».

كان جزء منها لا يزال ينبض بحبّه، يحثُّها على القبول. لكنها كانت تعلم أن ذلك أمر بالغ الخطورة، لأسباب عديدة. فإن كان «مارتن» قد أمضى ليلة سيئة، سيستيقظ باكراً وسيسأل عنها ويرسل في طلبها. فإذا لم تكن حاضرة هناك، سيؤدي ذلك إلى نشوب مشاكل هي بغنى عنها.

هزت رأسها قائلة: «علي العودة فوراً».

ـ سأكون واضحاً. لن أدعك تذهبين قبل أن نتكلم سوياً بهدوء.

كان الكلام معه آخر ما ترغب فيه، لكنها تعلم من تجربة سابقة أن «كير» صعب المزاج.

كانت لا تزال تعاني من الصدمة والعجز في مواجهة تصميمه وعناده الصلب، فاستسلمت لرغبته، قائلة: «حسناً، لكن يجب ألاّ أتأخّر كثيراً».

بدا «كير» غير واثق من استسلامها لدعوته. فأمسك بيدها وشبك أصابعه بأصابعها وهو يقودها في الاتجاه المعاكس. كان مقهى «ريد روستر» يعجُّ بالناس، وقد امتلأت المقاعد بالعمّال والزبائن المعتادين. اختار «كير» طاولة بجانب النافذة وطلب فنجانين من القهوة الإيطالية.

شربا قهوتهما بصمت إلى أن سألها «كير» وهو يراقبها من خلف فنجانه: «لم تبدين قلقة إلى هذا الحدّ؟».

ـ لا بدَّ أنّهم يتوقعون عودتي الآن.

ـ من هم؟

ـ ما... مارتن.

تصلّبت شفتاه وهو يقول معلّقاً: «إذن، أنتِ تقيمين معه؟».

ـ أنا أقيم في الشقة نفسها.

ـ أتعنين أنك تنتظرين خاتم الزواج قبل أن..

ـ أعني أنني أقيم في الشقة نفسها.

ـ لا أتصوَّر «شيرل» تلعب دور خادمة سيدة المنزل.

ابتلعت «سيرا» ريقها موضحة: «لقد انتقلت من الشقة بعد أن تزوجَتْ».

ـ وقد تزوجت بـ «روبرتو كانيللي».

كان كلامه تعليقاً أكثر منه سؤالاً. فتساءلت «سيرا» كيف عرف ذلك، وقالت: «نعم».

ـ إذن، منذ متى تقيمين هناك؟

بعد الحادث، غرقت في غيبوبة تامّة لخمسة أسابيع تقريباً قبل أن تستعيد وعيها. واضطرّت بعد ذلك للتخلّي عن غرفتها بعدما أمرها الأطباء بإمضاء فترة النقاهة في مستوصف خاص.

وحين استعادت عافيتها وتمكنت من مغادرة المستوصف، أصرَّ «مارتن» على أن تنتقل للإقامة معه في الشقة. فقال بحزم: «بإمكانك استعمال جناح «شيرل». فهي لم تعد بحاجة إليه بعد الآن».

فوافقت على مضض لعلمها أن ما من مكان لها تذهب إليه... وعاد «كير» يلح عليها بالسؤال حين لم تجب بسرعة: «أم أن ذلك يعد سراً خطيراً؟».

ـ منذ نحو سبعة أشهر.

رغم أن الوقت بدا أطول بكثير. فالسجن، وإن يكن فخماً، يظلُّ سجناً. ضمرت عيناه، بأهدابهما الكثيفة، في تأمل حائر: «خرجتِ لممارسة الرياضة باكراً. هل أنت عازمة على الذهاب إلى المكتب؟».

ما إن استعادت عافيتها ونشاطها، شعرت بالانزعاج من تبعيتها لـ «مارتن» مادياً. فأعلنت عزمها على العودة إلى العمل والبحث عن شقة للإيجار. لكن «مارتن» كان يعاني من إصابات بالغة في عموده الفقري، وكان لا يزال يتألم بشدة. وحين توسل إليها البقاء إلى جانبه في الظروف

الراهنة على الأقل، قبلت مرغمة.

بعد مرور بعض الوقت، تحسنت صحته بشكل واضح، فعادت لتفتح الموضوع مجدداً. رفض الفكرة تماماً، لأنه و «شيرل» لا يذهبان إلى المكتب الآن، فلن يكون لها أي عمل هناك في غيابهما. وأكّد لها أنه سيتابع أعماله في المنزل، ما إن تتحسن صحته، وسيكون بالتالي بحاجة لها إلى جانبه.

عندما حاولت يائسة مناقشة الموضوع، انفجر غاضباً واتهمها بعزمها على التخلي عنه بعد أن بات عاجزاً. لم تستطع احتمال هذا الضغط النفسي ووخز الضمير الذي راح يؤنبها، فاستسلمت...

أدركت أن «كير» يراقب وجهها بهدوء، بانتظار جواب واضح. حين التزمت الصمت، رفع حاجبه الداكن، متسائلاً: «ألن تقولي شيئاً «سيرا»؟».

هزّت رأسها وأحست بالاحمرار يعلو وجهها عندما أدركت نوعية الاستنتاجات التي قد يستخلصها من ذلك. وتابع قائلاً:

- أنتِ الآن امرأة حرة ليست بحاجة للعمل، وتحت تصرفك أموال لا تعد ولا تحصى! لا بد أنكِ تعيشين في الجنة.

فكرت «سيرا» بمرارة أن استنتاجه بعيد كل البعد عن الحقيقة، وتساءلت عما عساه يقول إن هو عرف حقيقة الوضع.

- يبدو أنك تظنني مهووسة بالمال.

- ما عساي أظن غير ذلك؟ لكن، نظراً للطفولة القاسية التي عشتها، أعتقد أني لا أستطيع إلقاء اللوم عليك إن كنتِ تبحثين عن زوج ثري يستطيع أن يقدم لك كل ما رغبت به يوماً.

- لكني لم أكن أبحث عن زوج ثري.

من الواضح أنه لم يقتنع بكلامها، فأضاف: «كنت غبياً إلى حد أني ظننتك مغرمة بي، إلى أن ظهر «روثويل» وهو يلوح لكِ بالمال».

- لم يكن لثراء «مارتن» أي علاقة بذلك.

- إذن، ما المعيار الذي استندتِ إليه؟ كان يفوقني وسامةً؟ وذكاءً؟

يظهر درجة أكبر من اللُّطف مع الأطفال والحيوانات؟

أجابته «سيرا» بحذر: «كان يجد الوقت ليخصّصه لي، وأولاني اهتماماً ورعايةً شاملين».

- تقصدين أنه كان يشتري لكِ الثياب، ويصطحبك إلى أماكن فخمة، ويصرف المال عليك في الوقت الذي لم أملك أنا أياً منه لإنفاقه عليكِ.

هزّت رأسها بإصرار، قائلة: «لم يكن للمال أيُّ علاقة بذلك، مطلقاً!».

حين أدركت أنها لن تتمكن من إقناعه، قالت باختصار:

- آه، ما الفائدة؟ لن يؤدي الحديث عن ذلك إلى أي نتيجة. لقد انتهى كل شيء وتم إغلاق الملفّ. لا يمكن تبديل شيء الآن.

- لست متأكداً من ذلك. لقد دبر «روثويل» الأمر وخطط له عمداً ليأخذك مني...

كان ذلك، على الأقل، صحيحاً. فقد استغلّ «مارتن» وحدتها بإصرار شديد شعرت معه بعد مدة بالامتنان له. كما استغل اعتقادها الراسخ بأن «كير» لم يكن يكترث لأمرها. فاستخدم لذلك كل لعبة وكل حيلة معروفة لإبعادها عن خصمه اللدود.

لكن «سيرا» ردّت هجومه قائلة: «لكنه لم يكن لينجح في ذلك لو لم تكن متورطاً مع «شيرل»...».

بدا كأن الدم تجمد في عروق «كير». ومن خلال صمته، سمعت «سيرا» جلبة الزبائن الآخرين وهمهمة أحاديثهم وطقطقة الأطباق والفناجين... ثمّ قال بتأنٍّ وحذر: «لم أكن قط متورطاً مع «شيرل»».

لم لا يزال يجهد نفسه بالكذب؟ أجابته: «رأيتكما تتناولان طعام الغداء معاً».

ضاقت عيناه وهو يقول: «لا يعدُّ تناول طعام الغداء مع أحدهم جريمة تستحق عقوبة الإعدام، كما أن ذلك لم يحدث سوى مرة واحدة. كان غداء عمل في مطعم «راندز»، وقد دفعت «شيرل» الحساب».

www.elromancia.com

ـ كنت ممسكاً بيدها.

ـ لقد تصافحنا. وهذا مختلف كل الاختلاف... أعتقد أنك كنتِ هناك مع «روثويل»؟

وراح يبتسم بسخرية.

ـ برفقة السيد والسيدة «كيسلر». كان غداء عمل. لقد طلب مني «مارتن» أن أحلَّ مكان «شيرل» لأنها كانت مشغولة. عندما مرَّ بي لاصطحابي، فكر في أني بحاجة إلى زيٍّ أنيق. لذا قدمت الشركة لي زياً يتلاءم أكثر مع مهمّتي.

ـ حقاً؟

أجابته بحنق شديد: «نعم، حقاً».

ـ ألم يكن ذلك لتزويدك بما يتلاءم أكثر مع رحلتك إلى «لونغ آيلند» في عطلة نهاية الأسبوع؟

ـ في ذلك الوقت، لم أكن أعرف أني سأُدعى للذهاب إلى «لونغ آيلند».

ـ أراهن أن «روثويل» كان على علم بذلك.

ـ لو لم تكن مصطحباً «شيرل» إلى «كاتسكيلز»، لما كنت ذهبت.

ـ لم أكن مصطحباً «شيرل» إلى «كاتسكيلز».

ـ ذكر لي «مارتن» أنَّها ستقوم بعملية فرار رومنسيّة بعيداً عن كل شيء، مع رجلها الأخير. وقد اعترفت أنك كنت معها في «كاتسكيلز».

تصلّبت شفتا «كير» وهو يقول: «لهذا السبب إذن سألتني إن كنت أقيم علاقة مع «شيرل»...».

ثم تنهد قائلاً: «إن ذهابي إلى «كاتسكيلز» في عطلة نهاية الأسبوع نفسها، لا يعني أني كنت رجل «شيرل» الأخير. كانت رحلتي رحلة عمل صرفة، وقد أخبرتكِ بذلك حينها... كان «روبرتو كانيللي»، الذي صادف أنه رجل «شيرل» الأخير، يملك قطعة أرض هناك وأرادني أن أديرها».

همست وهي تلفظ ذلك الاسم: «روبرتو؟».

ـ إن كنتِ تذكرين، عرفتني به «شيرل» ليلة الحفلة تلك. بعد أن ألقينا

نظرة على المكان الذي سينتقل إليه أعماله، عدنا إلى شقّته للخوض في بعض التفاصيل. ونحو الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، ركبت سيارة أجرة وعدت إلى البيت. وبقيت «شيرل» هناك.

ـ لقد عدت إلى البيت في تلك الليلة؟

ـ نعم، رأيت ضوءاً شاحباً متسرباً من شق بابك، لكني قررت أن لا أزعجك.

ـ تركت النور مضاءاً عمداً، آملة في أن تقرع الباب عند عودتك.

ـ كان الوقت متأخراً، وظننت أنك نائمة بلا ريب...

ثم تابع ليكشف لها عن السبب الآخر: «ولم يكن ذلك السبب الوحيد... من الطريقة التي كنت أشعر بها آنذاك، علمت أني إن دخلت، سأبقى. ولم أرد أن أفعل ذلك».

تناهى صوتها بما يشبه الهمس وهي تسأله: «لم لا؟».

ـ لأن ما يجمعنا لم يكن قط علاقة عابرة سطحية، بل علاقة حب طاهرة نقية. في تلك المرحلة، لم أكن أملك شيئاً أقدمه لك. لا الوقت ولا المال ولا الأمان والاستقرار... والزواج. كان مستقبلي كله على المحك. ولو أن الأمور أخذت منحى سيئاً...

وحرَّك يده بطريقة عبرت عن كلمة «نهاية».

ابتلعت «سيرا» ريقها بصعوبة: «ذهبت أقرع بابك في الصباح التالي، ولم تكن موجوداً».

ـ ذهبت إلى المكتب عند الساعة السادسة والنصف. كان أمامي يوم عمل شاق جداً. كان عليّ التعويض عن ساعات عديدة ذهبت هدراً، والذهاب إلى غداء عمل مع «شيرل» و «كانيللي»، ومن ثم القيام برحلة طويلة إلى «كاتسكيلز»... اتصل كانيللي في اللحظة الأخيرة ليعتذر عن عدم مشاركتنا الغداء، لكنه كان عازماً على القيام بالرحلة إلى «كاتسكيلز»، وقال إنه سيمر لاصطحابنا عند زاوية شارع «ماديسون»... كان كل شيء يبدو على خير ما يرام إلى أن عدت بعد ظهيرة يوم الأحد ولم أجد أي أثر لك.

وكدت أجن من القلق عليك إلى أن وصلتِ. . . عندما رأيتكِ تخرجين من سيارة «روثويل». . . ورأيته يعانقك. . . ورأيتكِ ترتدين ثياباً كنت أعلم جيداً أنك غير قادرة على شرائها بنفسك، احترقت غيظاً. . ثمّ اكتشفت أنك نزعت خاتمكِ. . . في صباح اليوم التالي، قرعت بابكِ لأعتذر عن الطريقة التي عاملتك بها، لكنكِ لم تكوني في الغرفة. لم استطع الانتظار لأن «شيرل» كانت ستمرُّ لاصطحابي إلى اجتماع عمل مع «كانيللي».

اشتدَّت ملامح «سيرا» وتصلبت شفتاها وهي تفكر في الحياة ومدى قسوتها. وقالت: «لقد رأيتها».

حين قرعت باب «كير»، لا بد أنه كان يستحم. وحين قرع هو بابها، كانت في المنتزه تبحث عنه يائسة. أرادت أن تنتحب وتثور غضباً في وجه القدر الذي قدّم لها السعادة على طبق من فضة ليعود وينتزعها منها ثانية. لكن، ما مدى الدور الذي لعبته يد القدر في ذلك، وما مدى الدور الذي قام به الإنسان حين تدخل في مسيرة القدر؟

لقد كان «مارتن» من أطلق رصاصة الرحمة. . . ها هي الآن تستعيد ملامح وجهه وهو يقول: «علمت أن «شيرل» ذهبت إلى مكانٍ ما مع «سائرلاند». هل أفهم أنها سرقته منكِ؟».

باتت لا تشك لحظة في الدور الذي لعبه «مارتن»، فقد تعمد جرها إلى ذاك الاعتقاد. كما أدركت بمرارة أن رد فعلها كان بلا شك ما أمل به «مارتن» تماماً.

لو أنها امتلكت الشجاعة الكافية لحث «كير» على الكلام، وسؤاله عن حقيقة الوضع، لعلمت دون ريب الحقيقة كاملة. لكن الواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن «كير» لم يكن لديه قط الوقت للاهتمام بها. فساهم ذلك في إقناعها بعدم اكتراثه بها، ودفعتها كرامتها وكبرياؤها إلى الابتعاد.

تابع «كير» كلامه بعد برهة، قائلاً: «حاولت ثانية ذلك المساء، لكنكِ كنت قد خرجت مع «روثويل». رأيته يعيدك إلى المنزل في وقت متأخر. وأدركت حينها أن ما من أمل تبقى لي. . . في ذلك الوقت، لم أكن قادراً على

منافسته، ولم أستطع كذلك إلقاء اللوم عليكِ لعدم قدرتك على الصبر والانتظار إلى أن أجمع المال لـ. . . .».

قاطعته «سيرا» بعنف: «لم أرد مالك. كل ما كنت أريده منك أن أجدك إلى جانبي حين أشعر بالحاجة إليك. لكنك لم تعر ذلك الأمر اهتماماً، بل كان العمل دائماً يتقدم على أي شيء آخر».

كان ذلك السبب وحده المسؤول عن كل ما حدث. فلو أنه لم يتركها مع «مارتن» تلك الليلة في الحفلة. . .

اعترف «كير» بألم: «هذا صحيح. لقد أهملتك. لكني، لسوء الحظ، لم أملك خيارات أخرى كثيرة. تُوفيت والدتي حين كنت في سنتي الجامعية الأولى في أوكسفورد. كان موتها حدثاً مفاجئاً وغير متوقع لنا جميعاً، وانهار والدي كلياً بعد أن كان متيماً بها. كانت أعماله في ذلك الوقت، تساوي مئات الملايين. لكنه، بين ليلة وضحاها، فقد أيّ اهتمام بها، كما فقد إرادة الحياة. فارتكب العديد من الأخطاء وبات عاجزاً عن اتخاذ القرارات الصائبة. وفي الوقت الذي أنهيت فيه دراستي وعدت إلى البيت، كانت «سائرلاند» قد بدأت تنحدر إلى الحضيض. . . لكني لم أدرك مدى خطورة الوضع إلا بعد أن استسلم للموت. ولم يتبق لي سوى منزل مرهون بكامله وتجارة مشرفة على الإفلاس. . . ولأنّ المنزل كان مرهوناً، تخلّصت منه واشتريت أوضع شقة استطعت العثور عليها وسط المدينة. كان علي أن أعمل بكد ونشاط طوال ساعات الليل والنهار لأتمكن من إنقاذ «سائرلاند». . .».

شعرت «سيرا» كأن خنجراً راح يتلوى بقوة في قلبها، وتساءلت عن السبب الذي منعه من إعلامها بذلك من قبل، بدل أن يخبرها به الآن، بعد أن فات الأوان؟

أضاف بكآبة: «لم يتسبب لي ذلك بالإزعاج، إلى أن التقيت بكِ. . .».

ـ لو أنك قلت لي فقط لم كنت تعمل كل تلك الساعات الطوال، لكنت تفهمت الأمر. لكنك لم تنبس بكلمة قط عن أي مشاكل من أي نوع.

ـ حاولت أن أتكتم على الأمر. إن الصفقات التي تتم في سوق العقارات وفي الأسواق المالية، تعتمد على الثقة بالدرجة الأولى. يكفي أن تطرأ عليكِ أول مشكلة، وينتهي أمرك.

ـ لكن، كنت تستطيع إطلاعي أنا على ذلك.

ـ لأكن صريحاً، فضلت أن لا أفعل. فأنت في النهاية، تعملين في شركة «أنكلو ـ أميركان»، وكنت ستجدين نفسكِ ربما موزعة الولاء.

عندما هزت رأسها، تابع قائلاً: «كنت تعلمين أن «روثويل» وافق على تمويل جزء من مشروع تطوير الأعمال في برودواي...».

ـ نعم.

ـ وضعت ما تبقى من مواردي القليلة في ذلك المشروع. كان رهاناً كبيراً، لكني كنت أعلم أن نجاح هذا المشروع سيشكل أول خطوة على طريق إعادة مجد «ساثرلاند» من جديد. كما علمت أيضاً أن «روثويل» سيسحب تمويله للمشروع إذا عرف أنه يواجه بعض الصعوبات. وكان ذلك سيشكل الضربة القاضية والنهائية...

قالت بمرارة: «أتمنى لو أنك وضعت ثقتك بي. أتمنى لو أنك أخبرتني».

ـ أكان ذلك سيحدث أي فرق؟

ـ نعم، بالتأكيد.

كان سيحدث كل الفرق! لو أنها علمت حقيقة الوضع، لكانت تفهمت ظروفه وقدمت له الدعم الذي يحتاجه، بدل أن تتهمه بعدم الاكتراث بها. كانت سترضى بالانتظار حتى إن لم تسر الأمور بشكل صحيح، وكانت ستبقى إلى جانبه حتى إن لم يمتلك فلساً واحداً.

لكن معرفتها بالحقيقة أتت متأخرة جداً، فهي الآن محاصرة وعالقة في الفخ الذي نُصب لها بحيث لم يعد أمامها أي سبيل للخروج من المأزق. سرت في جسدها رعشة مؤلمة.

ـ تشعرين بالبرد؟

ـ بعض الشيء.

كانت تشعر بالبرد يتسلّل عبر جسدها ليبلغ روحها.

ـ تبدين شاحبة ونحيلة، كما لو أنك فقدت قليلاً من الوزن. هل كنتِ مريضة؟

ـ لا.

لم تكن مريضة بالمعنى الذي قصده هو.

ـ ما الخطب إذن؟

شعرت «سيرا» فجأة أنه يكاد يقترب من موضوع خطير. فأردفت قائلة: «لا شيء».

انتفضت بسرعة ووقفت على قدميها، وقالت بتوتر: «علي أن أعود على الفور».

أطبقت أصابعه بلطف على معصمها، من دون أن تؤلمها، بل لتبقيها هنا، إلى جانبه.

ـ لم العجلة؟ لا يزال الوقت مبكراً.

دون تردد، أجابت «سيرا»: «إذا استيقظ «مارتن»، سيتوقع أن أشاركه طعام الفطور».

قال «كير» كأنه التقط موجة أفكارها: «الفطور في السرير، بلا شك؟ يا لهذه الحميمية!».

ورأى الاحمرار يعلو وجهها، فأضاف بتهكّم: «في الواقع، يبدو ذلك منتهى السعادة الزوجية».

عضّت شفتها ترجوه: «أرجوك، «كير»...».

وقف على قدميه قائلاً بعزم وتصميم: «حسناً، سأرافقك حتى المنزل».

اعترضت بسرعة: «أفضل ألا تفعل».

ـ لم لا؟ إذا اشتاق إليك، هل سيقف بالباب بانتظارك وهو يلوّح لك بالسلاسل والقيود؟

كان كلامه يعكس إلى حدّ بعيد الحقيقة المرة التي لم تكن في شيء منها

مضحكة. لم تجبه، فحرر معصمها ورمى بعض القطع النقدية على الطاولة ولف يده حول خصرها وهو يرافقها إلى الباب.

كانت المدينة في هذا الوقت تتمطى وهي تستيقظ من سباتها، وتستعدُّ لملاقاة الحياة ويوم جديد. راحا يتمشيان على الممر الجانبي الساكن والخالي من المارة، وكانت «سيرا» تشعر بقوة في أعماقها بالرجل السائر إلى جانبها، وبذلت جهداً كبيراً ليأخذ حديثهما منحى آمناً:

ـ منذ متى عدت إلى نيويورك؟

ـ منذ ستة أسابيع.

أصابها الذهول والخوف عندما علمت أنه كان هنا، قريباً منها طوال تلك الفترة، في حين ظنته بعيداً جداً.

أضاف بنبرة جافة وساخرة: «عندما كنت بعيداً، اشتقت إلى الأضواء الباهرة. ورغم أني أحب إنكلترا وقد أمضيت وقتاً طويلاً هناك، إلا أنني طالما اعتبرت نيويورك موطني، فبدت تلك السنة كأن لا نهاية لها».

مرَّت سنة تقريباً. كم من الأحداث قد تجري في سنة واحدة!

وخطر لها للمرة الأولى أنَّه يقيم ربما علاقة مستقرة مع امرأة أخرى. لقد كان رجلاً مثيراً، ما كان عليه سوى التحديق بأي امرأة تثير إعجابه بعينيه الرائعتين، وابتسامته الواثقة الساحرة.

قد يكون متزوجاً أيضاً... لا بد أنه تزوج. كانت واثقة دونما أي سببٍ واضح من أنه رجل يحب الزواج والاستقرار. كما أن رجلاً بجاذبيته وسحره وفتنته، لن يعاني صعوبة في العثور على زوجة له.. بالرغم من صوابية الفكرة، إلاَّ أنها لم تشعرها بالراحة والسرور.

ـ هل أنت متزوج... أو ما شابه؟

ما إن طرحت سؤالها، حتى عرفت الخطأ الذي ارتكبته. فهو يكشف الكثير. غضبت من نفسها وشعرت بالاحمرار يعلو وجهها.

رمقها بنظرة متسائلة وهو يقول: «لا، لست متزوجاً. أما في ما يتعلق بالشق الثاني من السؤال... أخشى أني لم أفهم جيداً ما تعنيه بـ: «أو ما

شابه»..».

ازداد الاحمرار حدة على وجهها، فصرت على أسنانها ملتزمة الصمت.

ـ ربما تعنين أني أقيم مع إحداهنَّ؟

لم تجبه، فأضاف: «هل يزعجك أن أقول نعم؟».

ـ لن يزعجني البتة. لا يهمُّني إن كان لديك العديد من العشيقات.

ـ هذا ليس أسلوبي، رغم أني لست ناسكاً. فأنا أشبه بوالدي وجدي. أنا رجل لامرأة واحدة.

كم تتمنى لو أنها كانت هي تلك المرأة.

عضت على شفتها وانتقلت إلى موضوع آخر: «هل ستبقى في الولايات المتحدة لوقت طويل؟».

ـ لقد عدت إلى موطني لأستقر هنا، بعد أن توفي جدي.

كانت «سيرا» تعلم كم أنه متيم بحب جده: «آه، أنا آسفة».

ـ راحت صحته تتدهور منذ مدة طويلة، وعلم أنه سيموت بعد بضعة أشهر. هذا هو السبب الرئيس الذي دفعني للعودة إلى إنكلترا، لكي أساعده في تخليص أعماله وتصريفها.

ـ منذ متى تُوفِّيَ؟

ـ توفي في شهر كانون الأول ـ ديسمبر. كنت سأعود إلى هنا منذ مدة طويلة، لكني اضطررت للعثور على رجل ذي كفاءة ومصداقية عاليتين لإدارة الأعمال في إنكلترا.

قالت بنبرة يملؤها السرور والبهجة: «بما أننا نتحدث عن الأعمال، علمتُ من التقارير المالية الأخيرة أن «سائر لاند» أحرزت تقدماً كبيراً».

علَّق «كير» على ذلك بسخرية: «لا بدَّ أن «روثويل» فرح بهذه الأخبار».

في الواقع، عجز «مارتن» عن إخفاء حزنه، بعد أن بدا التكدُّر على وجهه عند سماع تلك الأخبار. لكن «سيرا» لم تشأ أن تُفاقم حدة العداء بينهما، فقالت بثبات:

ـ ولم لا يفرح بها؟

ضحك «كير» بمرح قائلاً: «آه، هيا الآن! تعلمين أنه طالما كره شجاعتي. لا بد أنه يختنق الآن بعد أن عرف بنجاحي أخيراً».

حاولت «سيرا» أن تبدو عادلة ومنصفة: «أعتقد أنك تبالغ. ففي النهاية، لقد ساعد «مارتن» في تمويل ذلك المشروع الضخم في برودواي، الذي كان يعني لك الكثير».

قست ملامحه: «لم الادّعاء؟ أنت تعرفين حقَّ المعرفة أنه سحب دعمه للمشروع».

وحين رأى وجه «سيرا» المذهول، سألها: «ألم تعرفي بذلك؟».

أجابت بفم جاف: «لا. لم أعرف».

تابع «كير» كلامه: «انتظر «مارتن» حتى الدقيقة الأخيرة، إلى أن بات أكيداً وواثقاً من أني لن أجد مموّلاً آخر».

كانت «سيرا» تعلم أن الرجلين عدوّان لا يتفقان أبداً، لكنها لم تعلم أن بإمكان «مارتن» أن يُظهر كل تلك القسوة وروح الانتقام.

قال «كير» كأنه يردِّد صدى أفكارها: «آه، نعم. لقد سعى جاهداً وبذل كلَّ ما في وسعه ليتأكد من تحطيمي».

لم تُرد «سيرا» أن تصدِّق ذلك، فقامت بحركة تعبرُّ عن الرفض، وقالت: «من المؤكد أنه...».

ـ لا فائدة من محاولة الدفاع عنه. حين واجهته بالأمر، اعترف بفعلته بوقاحة. في الواقع، كان واثقاً من نجاح مخططه إلى حدّ أنه أظهر ارتياحه بالظفر. ومن المؤسف أني فقدت التحكم بأعصابي وأوسعته ضرباً.

تذكرت «سيرا» أنها رأت «مارتن» يوماً وقد ظهرت كدمات على وجهه، وكان في مزاج سيء جداً. لكن، حين استعلمت منه عن السبب، ادعى أنه ارتطم بأحد الأبواب بقوة. فقالت ببطء: «لكنه لم يفعل. أعني أنه لم ينجح في تحقيق مأربه... لكن، إن كانت الأمور بمثل هذا السوء، كما أخبرتني، كيف تمكّنت «سائرلاند» من النجاة؟

ـ عليَّ أن أشكر جدي على ذلك، كما أن الحظ كان إلى جانبنا. كان قد باع لتوه جزءاً من ممتلكاته وأمن مبلغاً كبيراً من المال، فزودني بالتمويل الذي أحتاجه. الآن، بمساعدة الإنترنيت، تزدهر الأعمال في العالم كله.

ـ آه، كم يسرني هذا!

علّق «كير» على كلامها وقد ظهرت السخرية على ملامحه: «ربما كان من الأفضل أن تبقي معي. فمع ما ورثته من جدي، أصبحت أملك من المال ما يفوق كل ما يملكه «روثويل»...».

رفعت رأسها تحدِّق به، بعد أن أدركت ما تعنيه النبرة الغريبة في صوته. فأضاف:

ـ في هذه الحال، أريدكِ أن تعودي إليّ.

انتفض قلبها بشدة وشغف مما جعلها تحبس أنفاسها. هل يعني هذا أنه لا يزال يهتم لأمرها؟

أجابها كما لو أنها كانت تفكّر بصوتٍ مرتفع: «بالرغم من خيبة الأمل التي أُصبت بها، لا أستطيع أن أبعدكِ عن تفكيري... سمِّه هاجساً إن شئتِ، «فروثويل» ليس الوحيد الذي يحق له أن يشعر على هذا النحو... وفي ما يتعلق به، أرغب بتسوية ديني معه. لقد قام بشرائكِ. الآن، أنا في وضع يمكنني من تقديم سعر أفضل».

لا بدَّ أن ذلك هو نوع من مزاح فظيع، أصاب «سيرا» بالدوار. فأخذت نفساً عميقاً وقالت: «لا يمكن أن تكون جاداً!».

ـ أؤكد لك أني جاد تماماً. أنتِ لا تحبينني، بل لست ربما معجبة بي حتى، لكنك كنت يوماً ترين المال والسلطة من ثمار الجنة. وها أنا الآن أملك الاثنين. إن تقطعي علاقتك بـ «روثويل» وتعودي إليّ، لدي من المال ما يكفي لأشتري لك خاتماً ماسياً لكل إصبع من أصابعك، ولأوفر لك مستوى العيش الذي ترغبين به. باختصار، أن أقدم لك كل ما يشتهيه قلبكِ.

شعرت «سيرا» للمرة الأولى بالارتياح حين بلغت مبنى «واربوتون» ـ لم

www.elromancia.com

تستطع قطّ اعتباره منزلاً لها ـ ودخلت عبر الباب الجانبي. ما إن فتحت الباب وهمّت بالدخول مسرعة، حتى أمسك «كير» بذراعها وأوقفها. أحنت رأسها وهمست: «الوداع».

مرر يده الثانية تحت ذقنها ورفع رأسها. توقّف قلبها لحظة عندما التقت العينان الزرقاوان بتينك الخضراوين. ثم أحنى رأسه الداكن، وعانقها. تنهدت وهي تشعر بأن العالم وكل ما يحويه لم يعد موجوداً. عانقها بقوة، فكان حضنه وذراعاه المحيطتان بها الحقيقة الوحيدة التي تعرفها.

عندما حررها أخيراً، أحست بالدوار والضياع، ففتحت عينيها لا ترى شيئاً وراحت تترنح. أمسك كتفيها وحاول تثبيتها، فما لبث العالم وكل ما فيه من مشاكل وأحزان أن عاد يثقل كاهلها.

تمتمت كلمات غير مفهومة، واستدارت مبتعدة عنه. فلفّ «كير» ذراعه حول خصرها وسار إلى جانبها في الردهة التي لا تزال خالية. رفعت رأسها بصعوبة وسألته: «ما الذي تفعله؟».

رفع حاجبيه في تساؤل ساخر، وقال: «أسير إلى المصعد معكِ».

اعترضت قائلة: «لا، لا يمكنك أن تفعل هذا».

أجابها بصبر وروية: «لا تكوني سخيفة. أنا أستطيع بالطبع».

توسلت إليه: «أرجوك، لا تفعل. أرجوك، إذهب».

ـ أذهب إلى أين؟

ـ إلى منزلك... إلى حيث تقيم.

ـ أنا أقيم هنا.

ظنت «سيرا» أنها لم تسمعه جيداً، فتوقفت وأخذت تحدق به. أشرقت عيناه الزرقاوان الداكنتان وكرر مرة ثانية: «أنا أقيم هنا».

ذُهلت «سيرا» ولم تدر ما تقول: «مستحيل... لا أفهم شيئاً».

ـ عندما عدت إلى نيويورك، انتقلت للإقامة هنا.

ـ انتقلت للإقامة هنا؟

ـ لقد فهمت الآن.

ـ إذن، لـمَ عانقتني عناق الوداع؟

ـ آه، أنا لم أعانقك عناق الوداع. لقد عانقتك فحسب.

ـ وأنت تقيم هنا حقاً؟

ـ نعم، حقاً.

هل انتقل إلى المبنى نفسه عمداً؟ أم كان ذلك مجرد مصادفة غريبة؟ لا، طبعاً، من الصعب تصديق ذلك. يصعب الاعتقاد بأن خطوته هذه لم تتم حسب تخطيط دقيق مسبق.

سألته: «أي طابق؟».

ـ أنا أسكن فوقكما مباشرة، في الطابق الأخير.

ـ لا، لا يمكنك أن...

علمت أن ذلك مستحيل، لأن «مارتن» أراد الانتقال إلى الطابق الأخير عند خروجه من المستشفى ليحصل على حديقة صغيرة، لكن المالك الأول رفض عرض «مارتن» وعزف بعناد عن مغادرة الشقة، بالرغم من الثمن الباهظ الذي عرضه عليه «مارتن».

ـ الطابق الأخير يقيم فيه سيد يدعى «كورنيل».

ـ كان يقيم فيه سيد «كورنيل». لقد أردت الطابق الأخير بشكل خاص. لذا، حين علمت أن السيد «كورنيل»، المتقاعد حديثاً، يبحث عن منزل بالقرب من البحر، سعيت جاهداً لأعثر له على ما يريد تماماً في «ويست هامبتون»... إذن، نحن جاران من جديد.

عجزت «سيرا» عن النطق، ولم تشعر به إلا وهو يرافقها إلى داخل المصعد. كان المصعد لهما وحدهما، لكن «كير» ملأ المكان بقامته الفارعة وكتفيه العريضتين ورجولته الصارخة.

أخذت «سيرا» تلهث، فابتعدت عنه بقدر ما تسمح لها مساحة المصعد الداخلية. وظلا صامتين بينما كانت تحاول بصعوبة تفسير ما أخبرها به للتوّ. ما الذي ينوي تحقيقه؟ ما هو مأربه؟

وتساءلت إن كان انتقاله للإقامة فوق منافسه القديم شيئاً ذا مغزى. ثم

www.elromancia.com

تساءلت بقلق عما سيقوله «مارتن» عندما يكتشف أن «كير» نجح في الحصول على الطابق الأخير في حين فشل هو. لا شك في أنه سيستشيط غضباً...

عندما توقف المصعد وفتح بابه، خرجت منه «سيرا» ورأسها يضج بالأفكار المضطربة. وصلت إلى منتصف الممر المفروش بالسجاد قبل أن تدرك أنها ليست في الطابق الصحيح.

ما إن حاولت الرجوع حتى أُغلق باب المصعد. فتح «كير» باب الشقة ولف ذراعه حول خصرها دافعاً بها إلى الداخل قبل أن تتمكن من التقاط أنفاسها.

لاحظت في البدء النور المشرق والمساحة الشاسعة، وسرعان ما أدركت السبب. كانت غرفة الجلوس تقع عند زاوية المبنى، وكانت كل جدرانها الخارجية تقريباً من الزجاج. وقد ترك العديد من الأبواب المؤدية إلى الشرفة الواسعة مفتوحاً. وكان نسيم الصباح الباكر، العابق بأريج الزهور وحرارة الشمس الدافئة يملأ الغرفة.

ـ تعالي لتلقي نظرة على الحديقة.

ـ لا. أنا... لا أستطيع الانتظار. أنا حقاً لا أستطيع.

لكن، حين استدارت لمحاولة الهرب، كان «كير» يتكىء براحة وهدوء على الباب. صرخت به مذعورة: «يجب أن أعود».

ـ لم العجلة؟ لستِ بحاجة للذهاب إلى العمل. دعينا نشرب القليل من القهوة. بإمكاننا احتساءها على الشرفة.

ـ لا أستطيع انتظار القهوة.

ـ ستجهز فوراً. أنا أترك إبريق القهوة جاهزاً لحين أعود من الخارج.

عبقت رائحة القهوة الطازجة في الغرفة كأنها تحاول تأكيد ما قاله، هزت رأسها في اعتراض: «لكن الساعة تقارب السابعة والنصف».

ـ أنا واثق من أن «روثويل» لن يمانع في تناول الفطور وحده لمرة واحدة.

لكنه سيمانع. وإذا عرف مع من كانت في ذلك الوقت، فإنه سيفقد صوابه.

تحولت نبراتها إلى ما يشبه التوسل: «أرجوك، «كير»...».

رأت على ملامحه مدى استمتاعه بالتحكم بالوضع. فهزَّ رأسه قليلاً، وأشار لها بحركة ساخرة لتسير أمامه. أطاعته لعلمها بعدم جدوى ممانعتها، واتجهت نحو الشرفة بخطى متعثرة وبمشاعر مضطربة.

* * *

www.elromancia.com

٤ ـ حب أم انتقام؟

أشار «كير» إلى كرسيين تتوسطهما طاولة زجاجية. جلست «سيرا» على أحد الكرسيين وأخذت تراقبه وهو يسكب فنجانين من القهوة.

ناولها فنجانها وجلس بينها وبين الممر الوحيد الذي يسمح لها بالفرار من الشرفة، كأنه بذلك يمنعها من التفكير حتى بالهروب.

صاحت به فجأة وقد استعر غضبها: «لماذا تتصرف على هذا النحو؟ ما الذي تريده؟».

ابتسم بهدوء، وأجابها: «أنت تعلمين جيداً ما الذي أريده «سيرا»».

وضعت فنجانها بحدة على الطاولة قائلة: «الانتقام، على ما أظن».

ـ الانتقام بالطبع. لكن، هناك ما أريده أكثر من أي شيء آخر. أنتِ.

ـ هناك الكثير من النساء الأخريات.

ـ صدف أني أريدكِ أنتِ.

ـ سبق أن قلت لك إني لست معروضة للبيع لأي رجل.

ـ إن كان المال لا يفي بالغرض، سيكون علي إذن أن أفكر بطريقة أخرى لكي أفوز بكِ.

ـ أنت تهدر وقتك.

شعر «كير» من الطريقة التي تكلمت بها، أنها تعني ما تقول، وبدا عليه الاضطراب لبرهة. هز كتفيه العريضتين وقال: «هل لنا أن ننتظر ونرى ما سيحدث؟ في هذه الأثناء، دعينا نكمل حديثنا».

ـ بالنسبة إلي، لا أعتقد أن لدينا ما نقوله بعد.

ـ آه، بل لدينا الكثير. على سبيل المثال، هناك الكثير من الأمور التي تكتمينها، وأرغب بمعرفة السبب.

هبت نسمة باردة ولفحت خصلة من شعرها الأسود فاستقرت على وجنتها. أبعدتها بيدها قبل أن تقول: «لا أعرف ما الذي تعنيه».

ـ سألتك منذ قليل لم أنتِ و «روثويل» لم تتزوجا حتى الآن...

أخذ يحدق بها كالصقر وهو يضيف: «هل السبب هو أنه على كرسي نقال؟».

جمدت أوصال «سيرا» للحظة، ثم قالت متلعثمة: «لم طرحت كل تلك الاسئلة إن كنت على علم مسبق بحقيقة الأوضاع؟».

ـ أردت أن أسمع القصة من وجهة نظرك... من الغريب أني لم أسمع بالحادث إلا مؤخراً. كان الخبر صدمة كبيرة لي، فأنا لا أتلذذ بمحاربة رجل على كرسي نقال... ولا تظني أني آسف لما حدث له.

ـ إذن، ماذا؟

ـ إذا فكرت في الأمر، تجدين أن هذا الوضع يقدم له خدمة كبيرة.

رغم أن كلامه تسبب بتشويش أفكارها وقلبها رأساً على عقب، إلا أنها علمت أن «كير» على حق. فإن وضع «مارتن» الصحي أمن له سلاحاً فعالاً، قام بالفعل باستغلاله والاستفادة منه إلى أقصى حد.

عضت شفتها، معقبة: «لكن، إن كنت تعرف كل شيء، فلماذا...؟».

ـ آه، لا. لا تزال أمور كثيرة مجهولة بالنسبة إلي. ويبدو أنك حريصة جداً على إخفائها عني... علمت أنه كان حادث سير؟

اكفهر وجه «سيرا» وأخذت ترتجف وهي تواجه احتمال الحديث عن موضوع يثقل كاهلها. أدركت أن «كير» يراقبها عن كثب، فحاولت السيطرة على نفسها والحفاظ على رباطة جأشها وتماسك صوتها وهي تجيب: «نعم، كان كذلك».

www.elromancia.com

ـ متى حدث ذلك؟

ـ بعد ذهابك إلى إنكلترا مباشرة.

ـ كان ذلك إذن منذ وقت طويل. أين حدث ذلك؟

ـ في «لونغ آيلند». كنا في طريقنا إلى «باين كوف» للانضمام إلى إحدى حفلات «مارتن» التي يقيمها في عطلات نهاية الأسبوع...

ـ في سيارة الليموزين؟

ـ لا. كان السائق في عطلة.

ـ تابعي كلامك.

ـ انحرفت السيارة عن الطريق عند أحد المنعطفات واصطدمت بشجرة على حافة الطريق...

ـ لم تصطدما بأي سيارة أخرى؟

ـ لا... وقد أُصبنا أنا و «مارتن».

ـ ما كان مدى الإصابة؟

ـ أُصبت بكسر في الجمجمة وتحطم عظم الترقوة، كما كسرت بعض الأضلاع.

تجهم وجه «كير» وتصلبت ملامحه، وسألها باختصار: «ماذا عن «روثويل؟».

ـ كانت إصابات «مارتن» أشد خطورة بكثير. وقد طالت أسفل عموده الفقري وتجويف الحوض...

رأت التبدل على ملامح «كير» فأردفت بسرعة: «لا. ليس الوضع كما تظن! سيتعافى بشكل كامل. يقول أطباءه إنه سيتماثل إلى الشفاء التام قريباً جداً وسيقف على قدميه مجدداً».

ـ متى؟

ـ يقولون في نهاية شهر أيلول.

ـ وسيطلب منك حينذاك الزواج؟

ـ نعم.

ـ وهل ستفعلين؟

ـ نعم، سأتزوج به.

ـ ليس إن تمكنت من الحؤول دون ذلك.

ـ لكنك لن تتمكن.

تصلب وجه «كير» وراحت عيناه الزرقاوان الداكنتان تحدقان بها بحدة اخترقت روحها. وقال: «قولي لي الحقيقة، «سيرا»... هل أنتِ حقاً تحبين «روثويل»؟ إن أجبت بـ «نعم»، سأختفي من حياتك بهدوء ولن أزعجك قط بعد اليوم».

صارعت جاهدة لإرغام نفسها على الكذب، من أجل مصلحة الجميع. لكنه أضاف بإصرار: «أريد الحقيقة».

ـ الحقيقة أني لن أتمكن أبداً من الابتعاد عن «مارتن» طالما يريدني إلى جانبه.

بدا الارتياح على وجه «كير» الوسيم، ممتزجاً بالرضى التام، فقال بمرح:

ـ أنت لا تحبينه إذن! لم أصدق ذلك منذ البدء، لكني أردت التأكد.

فقالت بهدوء: «أنا معجبة به».

كان ذلك صحيحاً بطريقة ما. فرغم قسوته وحبه للانتقام أحياناً، كان كثيراً ما يظهر اللطف والاهتمام. كان يتمتع بالعديد من الصفات الجيدة، والمحببة. فقط لو أنه كان أكثر عقلانية وأقل تعلقاً بها، لربما تيسر الحل للخروج من هذا المأزق. كم من الرجال قد يرغبون بزوجة رافضة وممانعة؟

ـ ما كنت لأظن أن الاعجاب وحده كاف لدفعك إلى الزواج به. وأنت تؤكدين لي دائماً أن لا علاقة للمال بكل ذلك.

ـ لا. ليس له علاقة.

ـ لماذا إذن تبقين معه؟

عضت شفتها وتمنت لو أنها التزمت الصمت وتركته يعتقد أن للمال علاقة بذلك.

www.elromancia.com

أخذ يراقب وجهها مضيفاً: «هل السبب هو أنك تشعرين بنفسك وقعت في شرك ما؟».

علمت تماماً ما كان يرمي إليه، فأخذت نفساً عميقاً وقالت بنبرة واثقة: «ليس هذا هو السبب بالتأكيد».

كانت تكذب بالتأكيد... منذ اللحظة التي سمحت فيها لـ «مارتن» بإدخال الخاتم في إصبعها، بدأت الشكوك تساور «سيرا» على نحو مقلق.

إلا أنها لم تواجه الحقيقة وتعترف لنفسها بالخطأ الجسيم الذي ارتكبته إلا بعد أن عاد «مارتن» إلى إنكلترا وحدد موعد زفافهما بعد أسبوعين فقط. وقد ترافق هذا الاعتراف مع يقين تام بأن «كير» هو الرجل الذي تحب، والذي ستحبه دائماً، وإن كان هو لا يبادلها الشعور نفسه.

لم تكن لـ «مارتن» سوى مشاعر المحبة والعرفان بالجميل، ولم يكن ذلك كافياً لمشاركته الحياة. وإن أقدمت على الزواج به، مع ذلك القدر الضئيل من الأحاسيس، ستخدع نفسها و «مارتن» في الوقت نفسه.

حاولت مراراً الإقرار لـ «مارتن» بحقيقة مشاعرها، لكنه رفض الاستماع إليها، عازياً سبب توترها إلى الاضطراب الذي يسبق الزواج...

حين كانا متجهين إلى «باين كوف» في عطلة نهاية الأسبوع، كانت قد عقدت النية على وضع حد لارتباطهما وإعادة الخاتم إليه. فلو أنها تمكنت من إنهاء الأمر قبل وقوع الحادث، لكانت الأمور اختلفت تماماً.

قال «كير» بهدوء: «أنا لا أصدقك. وأعتقد أنك ستتزوجين به لأنك عاجزة عن تركه بعد أن بات مقعداً».

ـ إنه ليس مقعداً. سيحصل في أسوأ الحالات على درجة خفيفة من العرج.

ـ تماماً. لم تضحين بنفسك إذن؟

كان يقترب من الحقيقة بشكل خطير جداً.

ـ ما الذي يجعلك تظن أن الزواج برجل ثري هو تضحية بالنفس؟

ـ السبب إذن هو المال في النهاية؟

ـ أليس هذا ما اعتقدته دائماً؟

ـ من بين أمور أخرى. اعتقدت يوماً أنك تحبينني، وكان ذلك يعكس غبائي. لم أظن أنك قد تتزوجين برجل لا تحبينه... لكن، ربما كان السبب مجرد انجذاب عابر؟

وقف على قدميه فجأة وانحنى فوقها واضعاً يديه على جانبي الكرسي الذي تجلس عليه وقال: «مهما يكن الأمر، فهو لا يزال موجوداً، لقد اكتشفت ذلك حين عانقتك».

هزت «سيرا» رأسها بالنفي بينما تقدم منها «كير» قائلاً: «هل تريدين أن أثبت لك ذلك؟».

ـ لا. لا أريد. أرغب بالذهاب الآن... أرجوك، «كير»... بات الوقت متأخراً جداً وسيقلق «مارتن» إن اكتشف غيابي عن المنزل.

ـ إنه لا يعلم إذن بأمر نزهاتك الصباحية؟

ـ لا.

ـ لم لا؟

ـ لم... لم أظن أنه سيوافق على ذلك.

ثم أضافت بنبرة حادة: «لقد استخدمت عبارة «نزهات صباحية»... ما الذي يجعلك تظن أن النزهة صباح اليوم لم تكن الأولى؟

ابتسم «كير» بخبث قائلاً: «غالباً ما أتكلم مع الحارس الليلي في المبنى... أعتقد أن اسمه «بيل»... إنه يهتم بك بطريقة أبوية».

ـ إذن، حين اصطدم أحدنا بالآخر، لم يكن ذلك مجرد مصادفة. كنت تعلم أني أذهب إلى المنتزه كل صباح، كما كنت تعرف على أي طريق أسير. كنت قابعاً هناك في انتظاري.

ـ لا أظن أني أحب هذا التعبير «قابعاً في انتظاري».

ـ أأحببت ذلك أم لا، لقد كنت بالفعل قابعاً هناك في انتظاري... منذ متى كنت تراقبني؟

ـ منذ أن انتقلت للإقامة هنا. ولأسباب عديدة، تطلب مني اكتشاف

ذلك وقتاً طويلاً، وكذلك الخطة التي وضعتها لشن حملتي تلك.

شعرت «سيرا» بأنه جاد في ما يقول، بالرغم من النبرة المستهترة التي تحدث بها. لكن، ماذا بإمكانه أن يفعل؟

راحت ساعة قريبة جداً تقرع معلنة الوقت. قفزت «سيرا» واقفة على قدميها، وصاحت بتوتر: «إنها الساعة الثامنة. يجب أن أذهب. يجب «مارتن» أن يبدأ العمل في الساعة الثامنة والنصف».

ـ منذ متى هو قادر على العمل؟

ـ بدأ بتصريف بعض الأعمال البسيطة منذ أربعة أشهر.

ـ هل يعمل كل يوم؟

ـ كل صباح، لبضع ساعات فقط. إلا إذا كان مزاجه سيئاً.

ـ وأنت تعملين كمساعدته الشخصية؟

ـ نعم.

أجابت «سيرا» عن أسئلة «كير»، لكنها شعرت بأنه يعلم مسبقاً الإجابات عنها.

ـ إذن، لا ينبغي أن أحتجزك أكثر من ذلك.

أسرعت نحو الباب، تكاد لا تصدق أنه سيتركها تذهب. ورغم أن «كير» كان يمشي ببطء، إلا أنه بلغ الباب قبلها وفتحه لها. فهرولت إلى الخارج من دون أن تلتفت إلى الوراء. فقال: «أراك في المنتزه غداً صباحاً».

لم يصل المصعد مباشرة، وشعرت به يقف بالباب محدقاً بها، فبذلت جهداً لإخفاء اضطرابها، فاقترح «كير»: «بما أنك على عجلة من أمرك إلى هذا الحد، بإمكانك استخدام السلالم».

عضت شفتها واتبعت نصيحته الساخرة، فنزلت السلالم بسرعة واندفعت إلى داخل شقة «مارتن».

إن كان قد استسلم للنوم في وقت متأخر، فربما تستطيع أن تخلع بذلتها الرياضية وتستحم قبل أن يستيقظ ويسأل عنها...

كانت في منتصف الطريق نحو الردهة حين فتح باب غرفة الجلوس

وظهر خلفه «مارتن» في كرسيه النقال. كان قد حلق ذقنه وارتدى ثيابه. لاحظت «سيرا» بحزن وأسى أن وجهه المتصلب مليء بالخوف والغضب. وأدركت في قرارة نفسها أنه كان خائفاً من أن تكون قد رحلت.

ـ أين كنتِ بحق الجحيم؟

ـ كنت أتمشى في المنتزه... كنت بحاجة لبعض التمارين الرياضية.

ـ عندما لم أجدكِ في غرفتك، لم أعرف أين ذهبت. لماذا لم تقولي لي إنك خارجة من المنزل.

ـ ظننتك لا تزال نائماً.

جالت عيناه الشاحبتان على بذلتها وحذائها الرياضيين وقال: «ليست هذه المرة الأولى، أليس كذلك؟».

ـ لا.

ـ منذ متى وأنت تتسلّلين خارجة من المنزل هكذا؟

احمر وجهها وهي تجيبه قائلة: «كنت أخرج في الصباح، حين يكون الطقس جميلاً، وذلك منذ سبعة أو ثمانية أسابيع».

ـ لو علمت أنك تمارسين الرياضة، لكنت رافقتك. فقد يكون الهواء المنعش مفيداً لي.

كانت «سيرا» تعلم أن «مارتن» لم يكترث قط بالهواء المنعش أو بأي نوع من الرياضة، ما خلا السباحة. فكان يميل إلى البقاء في الداخل، في مكتبه أو في المنزل، ويفضل السيارة والمكيفات الهوائية.

ـ لم لا ترافقني في الأيام المقبلة؟

ـ لا بد أن رؤية عداءة ورجل مقعد جنباً إلى جنب، سيكون أمراً مضحكاً!

ـ أرجوك «مارتن»، لا...

قاطعها بقسوة: «لن تعرفي قط ما معنى الجلوس في هذا الكرسي حتى تجربي ذلك».

ـ لكنك ستقف على قدميك مجدداً في وقت قريب.

ـ وسأصبح قادراً حينها على ممارسة الجري الصباحي حول المنتزه. إنه حقاً لأمر أتطلع إليه بشغف!

ـ أتمنى لو تكون أقل تشاؤماً.

ـ كيف تتوقعين أن أكون وأنا مقيد هنا، بينما تتسللين أنت وتتركيني من دون كلمة واحدة؟

ـ أنا آسفة... لن أفعل ذلك مرة أخرى إن لم ترد ذلك.

ثم ندمت على الوعد الذي قطعته حين تذكرت ما قاله لها «كير»: «أراكِ في المنتزه غداً صباحاً». لكنها ما لبثت أن شعرت بالارتياح بعد أن حسم «مارتن» الأمر بصرامة، وباتت الآن مضطرة لمقاومة الإغراء بالذهاب لرؤيته...

ـ ها أنتِ إذن، عدت سالمة.

ظهرت «كاثلين» آتية من غرفة الجلوس وقد بدت جميلة بقوامها الرشيق في زيها الأزرق والأبيض. كان شعرها القصير المجعد بسواد شعر «سيرا»، وعيناها بلون البنفسج.

تلاقت عينا المرأتين في تفاهم تام من فوق رأس «مارتن».

ـ قلت لحضرته إنه يزعج نفسه من دون سبب يذكر.

ثم أضافت بلكنتها الإيرلندية الرقيقة التي غالباً ما تستخدمها للتأثير بـ «مارتن»: «لكن هل سيسمعني يوماً؟».

رغم أنها كانت في مثل سن «مارتن» تقريباً، إلا أنها كانت تعامل مريضها كأنه صبي عنيد صغير. فتوقفه عند حده بثقة بالغة حين يتجاهل تعليمات أطبائه وأوامرهم.

تركت ممرضته الأولى العمل بعد بضعة أيام فقط وقد انفجرت باكية. أما الثانية، فلم تستمر سوى لأسبوع واحد قبل أن تفر هاربة. بينما أثبتت «كاثلين» بمهارتها وطبيعتها المشرقة وحسها المرح أنها هبة من الله.

في الأيام الأولى للحادث، كان يطلب من «سيرا» البقاء إلى جانبه عندما يعجز عن النوم بسبب آلامه المبرحة. فكانت «كاثلين» تتدخل قائلة إن

«سيرا» ليست في حالة تسمح لها ببذل جهد كبير وليست مؤهلة للتعاطي مع وضع كهذا، فتعمد بالتالي إلى إرسال الفتاة الأصغر سناً إلى السرير وتجلس معه بنفسها. وهي لا تزال تفعل هذا من وقت لآخر، عندما يعاني من مشكلة أو من أرق مزعج.

أصبح «مارتن» يعتمد عليها بشكل كامل، رغم أنه يتذمر أحياناً من تسلطها ويغتاظ من تغلبها عليه في لعب الورق أو الشطرنج. ولم تكن «سيرا» تجرؤ على التذمر عندما تغادر «كاثلين» بعد أن تنهي عملها.

ـ الآن أجرؤ على القول إنك بحاجة للاستحمام وتبديل ملابسك قبل أن تتناولي الفطور.

أومأت «سيرا» برأسها، فالتفتت «كاثلين» نحو «مارتن» قائلة: «في هذه الحال، قد يتسنى لنا الوقت لمناقشة العلاج الذي اقترحه الدكتور».

ـ طالما أن ذلك لن يأخذ وقتاً طويلاً.

ـ سأسرع بقدر ما أستطيع. ويسرني أن أتغاضى عن طعام الفطور إن كنت مستعجلاً لبدء العمل.

ـ لن أعمل أي شيء اليوم.

كان تصريحه مفاجئاً للمرأتين وأضاف: «ما إن يجهز الجميع، أرغب في الانطلاق نحو «باين كوف».

أجابته «سيرا»: «لكني اعتقدت أننا لن نذهب حتى يوم غد».

ـ وجدت أن «كاثلين» على حق.

اتسعت عينا «كاثلين» وهي تقول: «هذا مؤكد وحتمي... لكن، ألست كذلك دائماً؟».

رمقها «مارتن» بنظرة متفهمة، وتابع قائلاً: «اقترحت أن نذهب إلى «باين كوف» قبل يوم من الموعد المحدد. أرادت بذلك أن تمنحني بعض الوقت هناك لأستريح قبل الحفلة».

قالت «كاثلين» بحزم: «في هذه الحال، لدي الكثير لأقوم به... لم لا يقرر الرجال ما يريدون إلا في الدقيقة الأخيرة؟».

افتر ثغر مارتن عن ابتسامة عريضة أزالت خطوط الألم عن وجهه لتبدو ملامحه أكثر صبيانية وهو يقول: «لإبقاء النساء على أهبة الاستعداد دائماً».

أطلقت «كاثلين» زفرة اعتراض ساخرة رداً على كلامه. بدا المرح على وجهه وهو يضيف: «سأمنحك عطلة لليلة واحدة، فاحرصي على أن تأخذي معك ثوباً جميلاً للحفلة».

- إن تسني لي الوقت لذلك.

- النساء يجدن دائماً الوقت لمثل هذه الأمور.

- فقط حين لا يقمن برعاية الرجال.

سرها أن تكون لها الكلمة الأخيرة، فجرت الكرسي النقال إلى غرفة الجلوس بينما أسرعت «سيرا» للاستحمام وتبديل ملابسها.

وقفت تحت الماء الساخن المتدفق على جسدها وقد غشي البخار المتصاعد زجاج حجرة الاستحمام. وحاولت جاهدة أن تبعد عن ذهنها «كير» وكل ما علمته منه هذا الصباح.

أصبح ذلك كله من الماضي. لقد انتهى الأمر وولى إلى غير رجعة، حتى أنه لا يستطيع تغيير أي شيء. كل ما أملت به «سيرا»، أن يدرك «كير» عقم محاولاته، ويبتعد عنها وعن حياتها بهدوء ويتركها بسلام قبل أن يكتشف «مارتن» عودته إلى نيويورك.

«بسلام»... ! يا له من أمر مضحك. إنه لمضحك حقاً! وضحكت بما يشبه النحيب.

رغم أنهما يعيشان «بسلام» الآن، مقارنة مع ما عرفاه قبل ذلك، فإن فظاظة «مارتن» ونوبات غضبه الجامحة قد تراجعتا بشكل ملحوظ مؤخراً. كانت «سيرا» تعلم جيداً أن سبب ذلك يعود إلى «كاثلين» بشكل أساسي. لكن، إن اكتشف «مارتن» أن خصمه القديم عاد مجدداً، فلن تستطيع «كاثلين» حتى إبقاء الأمور على ما هي عليه من استقرار.

بالرغم من الحرارة المنبعثة من بخار المياه الساخنة، إلا أن «سيرا» شعرت بنفسها ترتجف في مكانها. فقد أخبرها حدسها بأن آمالها بابتعاد «كير»

عنها بهدوء لم تكن سوى آمال واهية عديمة الجدوى.

لم يكن من نوع الرجال الذين يستسلمون قبل أن يخوضوا معركة ضارية حاسمة. فإلى جانب كونه مخططاً بارعاً ومحنكاً، كان أيضاً يتمتع بالصلابة والعناد. وكلما تفاقمت الصعاب من حوله، كلما اشتد عزمه على القتال حتى النصر. لكنه لم يكن يعرف أن الظروف جعلت من تلك الصعاب جبالاً لا يمكن تجاوزها. لو أن الحادث لم يقع أبداً... لكنه وقع..

راحت «سيرا» تجفف نفسها بالمنشفة وهي تتساءل إن كانت هذه الرحلة إلى «لونغ آيلند» مفيدة، أم أنها ستعيد كل شيء إلى سابق عهده بقوة؟

لم يبق في ذاكرتها أي تفصيل عن الحادث بعد أن فقدت وعيها مباشرة. لكن «مارتن» ظل في السيارة وهو في وعيه الكامل، يصيح بشدة من الألم لأكثر من ساعة كاملة.

ستكون هذه المرة الأولى التي يسيران فيها على تلك الطريق منذ وقوع الحادث. وستكون أيضاً المرة الأولى التي يسمح فيها لأصدقائه وزملائه برؤيته على كرسيه النقال التي يكرهها إلى أقصى حد.

لكن، أرجوك يا الله، أن تسير الأمور على خير ما يرام... حين ذكرت «سيرا» مخاوفها، أجابتها «كاثلين»: «اعتبري هذه الرحلة نوعاً من العلاج. فما إن يسير على الطريق التي وقع عليها الحادث، وما إن يدرك أن الجلوس في كرسي نقال لا يقلل من شأن رجولته، حتى نكون قد تخلصنا من جزءين أساسيين من المشكلة، لنسير على طريق حل هذه المعضلة».

مع حلول مساء يوم السبت، أدركت «سيرا» أن مخاوفها لم تكن حقيقية، فشكرت الله على ذلك. لقد مرت بهم بضع لحظات من التوتر باكراً ذلك اليوم، عندما بدأ ضيوف «مارتن» بالتوافد إلى المنزل. لكن «شيرل» كانت قد حذرت الجميع من مغبة إظهار أي تعاطف نحوه وطلبت منهم التعامل معه كعادتهم. فمر اليوم من دون وقوع مشاكل من أي نوع.

كان ضيوف «مارتن» قد وصلوا جميعاً الآن، ما خلا زميل قديم له اتصل ليعتذر عن عدم الحضور. أما «شيرل» وزوجها اللذان يملكان منزلاً

خاصاً بهما في «هامبتونز»، فلم يأتيا سوى لحضور الحفلة. وبدا كل شيء يسير على خير ما يرام.

لطالما اعتبرت «سيرا» منزل «باين كوف» كبيراً جداً وضخماً، بغرفه العشرين، لكنها وجدته الآن ضرورياً لإحداث بعض التغيير، بعد إمضاء شهور عدة محتجزة في شقة «فيفث آفينيو».

أما «كاثلين»، فقد أحبت المكان ما إن وقع نظرها عليه، و «مارتن»، الذي أمضى وقتاً طويلاً في عزلة شبه تامة، وجد في صحبة الناس مصدراً للمتعة والفرح والنشاط. فبدا بالتالي أكثر شباباً وأشد سعادة مما كان عليه منذ وقوع الحادث.

كانت أمسية جميلة، ورغم أن مائدة الطعام كانت في غرفة الطعام، إلا أن الأبواب جميعها كانت مشرعة على الشرفة الواسعة، كذلك الأبواب في غرفة الجلوس.

بالإضافة إلى الضيوف الذين سيبيتون في المنزل، دعا «مارتن» ما يناهز الثلاثين صديقاً من جيرانه الذين راحوا يتوافدون في مجموعات صغيرة.

بدا «مارتن» وسيماً جداً وهو مسترخ في بذلته المسائية الأنيقة إلى جانب «سيرا»، يستقبل ضيوفه برحابة صدر. وما لبثت الحفلة أن أصبحت في أوج صخبها ومرحها.

أما «كاثلين»، فقد تخلت عن زيها الرسمي لتستبدله بثوب أزرق ليلكي يتطابق إلى حد بعيد مع لون عينيها. وبدت في تبرجها والزمرد المتلألىء في أذنيها، رائعة الجمال. وتساءلت «سيرا» عن الأسباب التي تدفع امرأة بمثل جاذبيتها للابتعاد عن حياتها الاجتماعية والعمل كممرضة.

لم يكن أمام «سيرا» خيارات عديدة، فارتدت ثوبها الطويل الضيق بلونيه الأخضر والفضي الذي اشترته للحفلة التي نظمتها شركة «أنغلو ـ أميركان» في السنة الماضية. كما رفعت شعرها الأسود الحريري في عقدة جميلة بسيطة. ووضعت لمسة خفيفة من الماكياج على وجهها بعدما لاحظت شحوبها والتعب البادي على ملامحها.

كانت كل زينتها تلك السلسلة الفضية الطويلة التي تضعها عادة تحت ثيابها. فتدلت من عنقها لتستقر بين انحناءات صدرها.

كان الجميع يحتشدون على الشرفة الكبيرة منذ مدة وجيزة، فتذمر «مارتن» بنبرة لاذعة: «لا أعرف لماذا لم تشتري ثوباً جديداً. سيسرني أن أراك ترتدين ثوباً أكثر حشمة لمرة واحدة».

علا الاحمرار وجهها، وعضت على لسانها ملتزمة الصمت. فلو أنها كانت تتقاضى راتباً صغيراً، لكانت اشترت ثوباً جديداً بدل أن ترتدي هذا الثوب الذي يعيدها بالذكرى إلى أوقات مؤلمة. لكن الوضع القائم لم يحملها على قبول مال «مارتن».

ثم وجه إلى «كاثلين» إطراء بالغاً: «تبدين في غاية الفتنة والسحر! لم ألاحظ حتى الآن كم أن عينيك جميلتان...».

سرى الاحمرار ببطء على وجه «كاثلين»، ولم تجد للمرة الأولى في حياتها ما تقوله رداً على هذا الإطراء. وأضاف: «لم لا تذهبين وتستمتعين قليلاً؟ «سيرا» ستبقى برفقتي».

لكنه، وهو يراقب «كاثلين» تتحدث إلى الضيوف وتضحك معهم، خاصة الرجال منهم، لم يبد «مارتن» مسروراً بانصياعها لطلبه. خافت «سيرا» من أن يفسد هذا الأمر أمسيته، فبقيت إلى جانبه ترعاه وتسهر على راحته، وهي تحاول أن تلعب دور «كاثلين» ودورها هي أيضاً.

ـ مرحباً!

ظهرت «شيرل» تتهادى في ثوبها الذهبي الرائع، إلى جانب زوجها «روبرتو». قالت وهي تنحني لتقبل وجنة شقيقها: «آسفة على تأخرنا في المجيء. كيف تسير الأمور؟».

ـ جيدة جداً.

ـ «سيرا»... كيف حالك؟

انحنى «روبرتو» بقامته القصيرة الصلبة وهيئته الرجولية المميزة، ورفع يدها إلى شفتيه يقبلها بحركة ساحرة وجريئة.

كانت عيناه داكنتين إلى حد السواد تقريباً، وابتسامته يشرق بها كل وجهه، ولكنته تسلب اللب. كان زوج «شيرل» أشد الرجال جاذبية وأكثرهم لطفاً.

بينما كان الرجلان يتصافحان، عانقت «شيرل» زوجة أخيها المستقبلية بحرارة، ثم تفحصتها بتمهل قائلة: «ما زلت تبدين نحيلة وشاحبة».

ـ أنا بخير، حقاً... لكن، أنت تبدين رائعة.

كانت «شيرل» ممتلئة الوجه أكثر من ذي قبل، وقد تلاشت القسوة عن ملامحها، فبدت مشرقة بالصحة والسعادة. لا بد أن الزواج يلائمها. وقالت: «هذا ما يفعله بك الحب».

كان الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث، فأخذت «شيرل» «سيرا» بعيداً عنهما وهمست لها: «لا ننوي إعلان الخبر الآن، لكن يجب أن أعلم أحداً قبل أن أنفجر من الإثارة... أنا أنتظر طفلاً!».

ـ أنا مسرورة جداً لأجلك. متى تتوقعين الولادة؟

ـ ليس قبل سبعة أشهر من الآن. لكن «روبرتو» لا يستطيع الانتظار.

خفضت صوتها قليلاً وأضافت: «لم تكن زوجته الأولى تريد أطفالاً، فانفصلا لهذا السبب. إنه سعيد جداً بأبوته المنتظرة، ولو أني لم أمنعه من ذلك، لكان أعلن النبأ بأعلى صوته من على سطح منزلنا... لكني لم أسمح له في الوقت الحالي إلا أن يطلع «مارتن» على ذلك».

وأطلقت تنهيدة شكر: «لم أصدق يوماً أن من الممكن أن يشعر المرء بهذا القدر من السعادة». ثم أضافت وهي تحدق إليها: «لاحظت أنك لا تبدين سعيدة جداً، بالرغم من الأخبار السارة عن صحة «مارتن»».

كذبت «سيرا» وهي تجيب: «آه، بل أنا كذلك. ارتحت جداً حين علمت أنه سيكون بخير».

ـ سيتسنى لك قدر أكبر من الحرية. كنت أعتقد أن حالة «مارتن» النفسية ستتحسن كثيراً بعد أن أثبتت تلك الممرضة الإيرلندية أنها ملاك من السماء، لكن يبدو كأن...

سألهما «روبرتو»: «أرجو أن لا تكونا عازمتين على الثرثرة طيلة الأمسية؟».

ـ كنت أطلع «سيرا» على سرنا.

ـ أليس هذا رائعاً «سيرا»؟

ـ إنه حقاً لأمر رائع!

فقالت له «شيرل»: «من الأفضل أن نختلط بالناس قليلاً. فشقيقي العزيز لا يبدو مسروراً جداً...».

كان «مارتن» مقطباً حاجبيه وهو يحدّق بهم.

ـ أراك لاحقاً.

عادت «سيرا» إلى جانب «مارتن»، فقال بحدة: «كم من الوقت ستبقين بعيدة عني؟».

ـ كانت «شيرل» تخبرني عن الطفل. أليس هذا خبراً رائعاً؟

ـ هذا يتعلق بمدى حبك للأطفال. شخصياً، لا أشعر بحماس شديد في ملء حياتي بصخب الأطفال وضجيجهم، ولكي أكون صادقاً، لم أتصور قط أن «شيرل» قد ترغب بإنجاب أي منهم. رغم أن «روبرتو» قال لي...

وإذا به يتوقف عن الكلام فجأة.

لحقت «سيرا» بنظراته فانقطعت أنفاسها. كان «كير» يتقدم نحوهما، وقد بدا وسيماً إلى حد خطير في بذلته المسائية الأنيقة وربطة عنقه الحريرية.

***

٥ ـ سجن الفراشات

ماذا يفعل «كير» هنا بحقّ السماء؟ كان البريق يشع من عينيه وقد أحنى رأسه الداكن بشكل ينذر بالمتاعب.

أحنى رأسه بتهذيب: «سيرا»... «روثويل»... أظن أن الأمنيات بعيد سعيدٍ مسموحٌ بها للجميع؟».

بدا «مارتن» متردداً وهو يقول: «كنتُ أظنكُ في إنكلترا».

ـ ظننت أيضاً أن «ساثرلاند» انتهت. كنت مخطئاً في كلي الأمرين يا مارتن.

سأله «مارتن» غاضباً: «لم أتيت إلى هنا بحق الجحيم؟ لم يدعك أحد».

ـ في الواقع، لقد دعتني «شيرل».

ـ لا أصدق هذا. لم تقل لي شيئاً عن الأمر. وكيف علمت بعودتك؟.

ـ لقد التقينا في المصعد وهي تغادر شقتك..

تحركت «سيرا» بشكل لا إرادي. لكن «مارتن» أمسك بمعصمها خوفاً من أن تتركه، وسأل «كير» بحدة: «ماذا كنت تفعل في مبنى «واربورتن»؟».

أجابه «كير» بهدوء: «أنا أسكن هناك... في الطابق الأخير».

حدج «سيرا» بنظرة هادئة من عينيه الزرقاوين وهو يتكلم. فعلم «مارتن» على الفور ما ترمي إليه نظرته تلك، وشد بأصابعه على معصم «سيرا» كأنه يريد تحطيم عظامها. وقال:

ـ كنتِ تعلمين أنه يسكن هنا؟

ـ نعم... لكن ليس قبل...

قاطعها «كير» بلطف: «صدف أن التقينا في المنتزه، وأخذتها إلى الشقة لتلقي نظرة على المكان».

ـ لذلك كنت تتسللين من المنزل كل صباح، وتتظاهرين بممارسة الرياضة. كنت تقابلينه!.

ـ لم أكن أفعل ذلك. لم أعرف حتى أن «كير» عاد إلى نيويورك قبل صباح يوم الخميس، حين...

ـ أيتها الكاذبة الوضيعة...! أظن أنك أردته أن يأتي إلى هنا؟.

ـ لا، لم أرد ذلك. لم أكن أعرف حتى أنه سيأتي.

ـ إذن، ما الذي دفع «شيرل» لدعوته؟.

ـ لا أعرف.

ما إن أنهت كلامها حتى وضعت يدها على رأسها المتمايل من الدوار.

سألها «كير» بحدّة: «هل أنت بخير؟».

أجابته بشفتين متصلبتين: «إنه مجرد صداع».

فسأله «مارتن» مرة أخرى: «إن لم تفعل «سيرا» ذلك، فلماذا دعتك «شيرل»؟».

أجابه «كير» ببرودة تامة: «ولماذا لا يجب أن تدعوني؟ فنحن لم نتشاجر قط».

ـ يجب أن تعلم أنك غير مرحب بك هنا.

ـ لم عليها أن تعلم؟ هل أخبرتها أنني أوسعتك ضرباً في آخر اجتماع لنا...؟ لا، لا أعتقد أنك فعلت ذلك. فما حدث ليس من الأمور التي تحب أن تتحدث عنها.

ـ عليك اللعنة، «ساثرلاند»! أعتقد أنك راغب في إعادة الكرة؟.

ـ كان ذلك ليسرني لو أنك واقف على قدميك. لكن في حالتك هذه...

ـ أخرج من هنا! هيا، اخرج وإلا جعلتهم يرمون بك في الطريق.

رفع «كير» حاجبه بسخرية: «يا إلهي، ما الذي سيقوله الجميع إن علموا أنك تهدد بطرد ضيفٍ من ضيوفك المدعوين رسمياً؟».

أبقى «كير» صوته خلال المحادثة منخفضاً، لكنه راح يزداد غضباً. أما «مارتن» فكاد يسمعه جميع الحاضرين داخل المنزل وخارجه.

حاولت «سيرا» يائسةً أن تحول دون تفاقم الأمر، فتوسلت إلى «مارتن»: «أرجوك «مارتن». إن الحفلة تسير على خير ما يرام، فلا تدع غضبك ينفجر أمام الجميع».

ـ تخلصي منه إذن.

التفتت إلى «كير» راجيةً: «أرجوك أن تذهب، من أجلي».

كانت كلماتها تعكس أكثر مما ظنت، فقطب «كير» حاجبيه: «لا تقلقي، لم أكن أنوي البقاء هنا لوقت طويل. لكني أرغب في التحدث إليك على انفرادٍ قبل أن أذهب».

ـ ستبقى «سيرا» هنا، معي أنا.

ـ هذا يعود إليها طبعاً.

ـ ستبقى معي أنا.

بدا على ملامحه رضى متردد وهو يحدق باليد القابضة على معصم «سيرا»، وقال: «لا يبدو أن لديها أي خيار آخر».

بعد برهة، أرخى «مارتن» يده، تاركاً يدها التي حملت آثار قبضته القوية، ليريه أنها أصبحت حرة. وقال متحدياً: «إسألها الآن إن كانت تريد الذهاب معك».

حدقت عيناه الزرقاوان الداكنتان بوجه «سيرا» الشاحب، وسألها: «سيرا. . . ؟».

ظلّت واقفة في مكانها لا تأتي حراكاً، وهي مخدرة الأحاسيس. ثم هزت رأسها بصمت.

أشرق وجه «مارتن» ببريق النصر هو يسخر من «كير» بطريقة مهينة:

«أرأيت؟ لم لا تجعل رأسك المتصلب يستوعب أنك تهدر وقتك؟ إن «سيرا» لي. . . ».

شحب وجه «كير» تحت سمرته الداكنة وتصلبت بشرته فوق بنية عظامه القوية. وأضاف «مارتن»: «ستفعل كل ما أريدها أنا أن تفعله».

ـ آه، مرحباً. . .

ظهرت «كاثلين» فجأة وهي تبتسم لـ «كير»، وقالت: «لم أكن أتوقع أن أراك هنا».

أشاح «كير» بوجهه عنهما والتفت يبتسم لـ «كاثلين»: «لقد دعتني «شيرل»».

بدت «كاثلين» مرتبكة بعض الشيء: «آه. . . لم أعرف أنكما تعرفان بعضكما بعضاً، بما أنك قدمت حديثاً إلى نيويورك. . . ».

ـ رغم أنه لم يمض على وجودي في نيويورك سوى بضعة أسابيع، إلا أنني أقمت هنا في وقت سابق وأبرمت بعض صفقات الأعمال مع زوجها. يمكنك القول إننا صديقان قديمان. . . هل تعرفين أين أجدها الآن؟ فلم تسنح لي الفرصة بعد لألقي عليها وعلى «روبرتو» التحية.

ـ كنت أتكلم معها منذ دقيقة فقط. لذا، تعال معي لأرافقك إليهما.

ابتسمت لـ «مارتن» و «سيرا»، ثم التفتت نحو «كير» وأخذته بعيداً. راقبتهما «سيرا» وهي تشعر بالخلاص، بينما راح «مارتن» يحدق بهما والغضب يستعر في داخله.

أدركت «سيرا» من خلال ملامحه أن السبب في غضبه المستعر هذا، كان مشهد «كاثلين» بثوبها المتألق تبتسم لخصمه اللدود. انفجر «مارتن» غاضباً، وسألها بنبرة حادّة وهو يلعن الاثنين: «اللعنة عليهما معاً. . . كيف حدث أن «كاثلين» تعرفه؟».

أجابته «سيرا» وهي ترتجف: «ليست لدي أدنى فكرة عن ذلك».

بات واضحاً الآن من أين كان يستقي معلوماته. فحين اكتشفت «كاثلين» أنه يعرف آل «روثويل»، بدت مضطربة بعض الشيء،

كأنها خافت من أن تكون أفشت له معلوماتٍ خاصة.

تنهدت «سيرا» بحرقة. لقد تحولت الأمسية التي ظنتها تسير على خير ما يرام إلى ما يشبه الكابوس. وعرفت أن الأيام التالية ستكون أسوأ بكثير.

كانت «كاثلين» في الماضي، قادرة بحنكتها وتعاطفها على تخفيف العبء عنه. لكنها، بعد أن أثارت حنقه وغضبه الآن، فإن الوضع ينذر بالسوء لهما معاً.

قطع صوت «مارتن» حبل أفكار «سيرا»: «أرغب في الخروج من هنا».

استجمعت قوتها وهي تسأله: «هل ترغب في الخروج إلى الحديقة؟».

ـ لا. أريد أن أبتعد عن الناس. خذيني إلى غرفة المكتب.

ابتعدت «سيرا» عن حشود الناس وصخبهم، وجرّت الكرسي النقال إلى جناح «مارتن» الخاص.

ـ أتفضل البقاء هنا أم الجلوس في الخارج؟.

بدا ذهنه مشغولاً بأمور أخرى، فأجاب باختصار شديد: «لست أبالي».

دفعت كرسيّه إلى الشرفة وجلست إلى جانبه بانتظار وابل الأسئلة والاتهامات التي سيمطرها بها... ولم تنتظر طويلاً..

ـ لماذا لم تخبريني بعودة «ساثرلاند»؟.

ـ لم أشأ إفساد عطلة نهاية الأسبوع.

ـ كيف علمت أنه عاد؟.

ـ كما قال لك. التقيت به في المنتزه.

ـ كم مرّة التقيت به؟ وأريد أن أسمع الحقيقة.

ـ مرة واحدة فقط، وقد حدث ذلك بالصدفة...

لم تكن تلك الحقيقة كاملة. فلم يحدث اللقاء صدفة بالنسبة إلى «كير».

ـ لو أنك لم تعودي إلى المنزل في وقت متأخر من ذلك الصباح، لما علمتُ بنزهاتك قط، ولتمكنتِ من مواصلة خداعي.

عضت شفتها حين أرادت الاعتراض على كلمة «خداع». لأنها كانت

تخدعه بالفعل حين أخفت عنه أمر نزهاتها الصباحية.

ـ كم مرة صعدت إلى شقته؟.

ـ تلك المرة الوحيدة فقط. لم أرد الصعود حينها، فقط...

بينما كانت تحاول إيضاح الظروف له، نظر إليها بعينين باردتين كالثلج إلى أن توقفت عن الكلام.

ـ ماذا كنتما تفعلان في الشقة لكي تتأخري في العودة إلى هذا الحدّ؟.

ـ كنا نتكلم فحسب.

ـ هل أخبرك كيف حدث أنه يقيم في الطابق الأخير؟.

ـ تقاعد السيد «كورنيل»... وكان يبحث عن منزل قريب من البحر...

ـ وأعتقد أن «ساثرلاند» وجد له ذلك المنزل؟.

ـ نعم.

ـ عمّ تحدثتما غير ذلك؟.

ـ أخبرني أنه لم يكن قط على علاقة بـ «شيرل».

ـ وهل صدقته؟.

ـ نعم.

رمقته بنظرة مشككة قبل أن تتابع: «أنا أعلم الآن أن «روبرتو» هو الذي اصطحبها إلى «كاتسكيلز». وهي كانت مع «روبرتو» حين جعلتني أنت أعتقد أنها كانت مع «كير»».

ـ كان «ساثرلاند» في «كاتسكيلز».

ـ في رحلة عمل.

ـ يا إلهي، كم أثر فيكِ!.

ـ بإمكاني أن أذهب الآن وأسأل «شيرل».

وهمت بالنهوض. فأمرها «مارتن» بالجلوس: «انتظري! لنفترض أنه كان هناك في رحلة عمل، فهو لم يوفر وقتاً كافياً للاهتمام بك. لا تنسي ذلك، فالعمل كان يفوقك أهمية».

www.elromancia.com

ـ وأنت تعلم السبب بالتأكيد.

هز كتفيه بتثاقل: «كان «سائر لاند» في مأزق مالي حرج».

ـ كيف اكتشفت ذلك؟.

ـ كانت «شيرل» معجبة جداً به في ذلك الوقت. وقد دفعها فضولها لأن تعرف السبب الذي يجعل رجلاً في مستواه يعيش في شقة وضيعة وسط المدينة، فقمت بتحرياتي. لست أدري ماذا يملك الرجال أمثاله... لكن، حين أطلعتها على الحقيقة، كان جنونها كافياً لتفكر في مساعدته.

ـ رغم أنك فعلت عكس ذلك تماماً.

بدا الحذر على ملامحه، فحدجها من تحت أهدابه: «ماذا تعنين تحديداً؟».

ـ لقد سحبت دعمك لمشروع «برودواي».

ـ كيف بإمكاني ألا أفعل؟ فالمخاطرة كانت كبيرة.

ـ أهذا هو السبب الوحيد؟.

ـ بالتأكيد.

ـ لا بد أنك كنت تعلم حجم المخاطرة قبل ذلك بفترة طويلة. فلم انتظرت حتى اللحظة الأخيرة لتعلمه بانسحابك؟ ألم تكن تسعى لرؤية «سائر لاند» تغرق عميقاً؟.

ـ أعتقد أنه هو من قال لك هذا؟.

ـ إنها الحقيقة، أليس كذلك؟ أليس صحيحاً أيضاً أنه لم ينفجر غاضباً ويوسعك ضرباً إلا بعد أن جاهرت بانسحابك من المشروع من دون تردُّد؟.

أجابها «مارتن» بسخط: «حسناً. أنا أكره شجاعته وإقدامه».

ـ كما كنت تغار منه أيضاً.

ـ أنت تعلمين كيف أشعر نحوك. لم أحتمل أن أراك تنظرين إليه كأنه السيد «الرائع». كنت رجلاً مثله، وقادراً على منحك الكثير مما لا يقدر هو عليه... وما زلت قادراً. ما إن أحصل على موافقة الأطباء، سنتزوج...

لم تقل شيئاً، فتابع قائلاً: «لقد وعدتني بالزواج، وأنتِ مسؤولة عن

وعدك».

ظلت ملتزمةً الصمت، فأمسك بيدها قابضاً عليها بشدة وهو يقول: «لن تغيري رأيك الآن لأنه عاد؟ لن تتراجعي وتتركيني؟».

ـ لن أتركك طالما أنت بحاجة إلي.

أفلت يدها وهو ينتهد بارتياح. ثم ظهرت «كاثلين» متجهة نحو الشرفة: «ها أنت مختبىء هنا إذن! هل كل شيء على ما يرام؟ تبدو غاضباً جداً».

علق «مارتن» على كلامها بخبث: «يدهشني أنك وجدت الوقت اللازم لكي تسألي. ظننتك مهتمة أكثر بـ «سائر لاند»».

قابلت «كاثلين» تصرفه الصبياني برضى، وقالت بنبرة مغيظة: «حسناً الآن، إنه لرجل وسيم حقاً. إنه كذلك بالفعل».

تجاهلت نظرات «مارتن» المهتاجة، وأضافت متنهدة: «من المؤكد أن تينك العينين قادرتان على اغواء أي فتاةٍ وقلب كيانها رأساً على عقب».

انفجر «مارتن» غاضباً: «إن كان رائعاً إلى هذا الحد، يدهشني أنك تمكنت من تركه». أجابت بأسف: «لقد رحل من دون أن يشرب شيئاً حتى. وهو يرسل لك اعتذاره لأنه اضطر لمغادرة الحفلة باكراً، لكنه قال إنه واثق من عدم ممانعتك لذلك».

ظهرت أسنانه حين ابتسم كما لو أنه يزمجر، وتمتم قائلاً: «أعتقد أن هذا ما يسميه بـ «حسّ الدعابة»».

ـ يعجبني الرجل الذي يتمتع بروح الدعابة. خاصة ذلك الذي يستطيع أن يسخر من نفسه. فالكثير من الرجال حسب رأيي يجلسون متباهين، وينظرون إلى أنفسهم بجديّة مفرطة...

حدجها «مارتن» بنظرة مشككة. فتابعت بمرح: «هل أنت على استعداد لتعود إلى الحفلة وتمرح مع أصدقائك؟ إنها حفلتك في النهاية، وقد سأل عنك العديد من الضيوف حتى الآن».

ـ قبل أن أعود إلى الحفلة، قد تتفضلين ربما بإعلامي كيف حدث أنك

www.liilromancia.com

تعرفين «سائر لاند».

ـ قد أفعل ذلك.

ثم استدارت نحو «سيرا» وقالت: «آه، بالمناسبة، أرادت «شيرل» أن تكلمكِ. كانت تقف مع مجموعة صغيرة في الحديقة... أنتِ تبدين شاحبة جداً. هل أنت بخير؟».

تصنعت «سيرا» الابتسام: «نعم. إنه مجرد صداع».

ـ حسناً، إن كنت تريدين الانضمام إلى «شيرل»، سأبقى أنا وأخبر حضرته، كلّ ما يود معرفته... قبل أن يفوتنا الكثير من الحفلة.

علق «مارتن» بنزق: «تتكلمين كأنني لست سوى فضولي مزعج».

تهاوت على الكرسي الذي أخلته «سيرا» للتوّ، وأجابته بمرح: «لست تختلف عن أي رجل آخر. كلكم متشابهون. لكنك على الأقل تملك ميزتين أساسيتين... فأنت وسيم جداً وتدفع لي راتباً شهرياً».

فهددها قائلاً: «أستطيع دائماً أن أوقف ذلك الراتب».

ـ آه، لا أظنك قد ترغب في...؟.

بدا وكأنهما يهمان بدخول مباراة كلامية يستمتعان بها عادةً. أدركت «سيرا» ذلك وهي تفر مبتعدة. يا لها من امرأة ذكية! لا بد أن «كاثلين» كانت تعلم أن هذا ما يحتاجه «مارتن» ليستعيد مزاجه المرح.

شعرت «سيرا» بحاجة ملحة للانفراد بنفسها لدقيقة أو اثنتين. فأخذت تسير في الممرّ الذي يمتد على جانب المنزل، قبل أن تعبر الشرفة الحجرية المؤدية إلى الحديقة.

بلغت البوابة الحديدية المؤدية إلى الأرض الرملية الممتدة حتى الشاطىء، فإذا بها تفتح ويظهر «كير» وراءها.

شهقت من الذعر قائلة: «ما الذي أعادك إلى هنا؟».

ـ لم أذهب بعد. كنت في انتظارك.

تساءلت كيف عرف أنها ستأتي إلى هنا، وهزت رأسها: «شيرل أرادت أن...».

ـ طلبت من «كاثلين» أن تقول هذا.

ـ لماذا؟.

ـ لأني أريد أن أتكلم معك.

ـ أرجوك «كير». قد يرانا «مارتن».

ـ هل أنت خائفة منه؟.

ـ لا.

كانت تلك هي الحقيقة. لم تكن تخاف «مارتن»، بل كانت بطريقة ما تخاف من «كير». إن «مارتن»، بطبعه الحاد وغروره، أشبه بصبيّ صغير، لا يشكل أي تهديد أو خطر حقيقي في حين كان «كير» صلباً وخطيراً. كان رجلاً رائعاً يجعلها ترتجف لمجرد النظر إليها، لذلك أضافت:

ـ أنا لا أريده أن يتوتر وينزعج أكثر من ذلك.

ـ في هذه الحال، دعيني أقترح عليك أن نتمشى نزولاً إلى الشاطىء. فلا أحد يستطيع رؤية الشاطىء من الطابق الأرضي للمنزل.

ـ لكن، لم يعد ثمة شيء نقوله.

ـ أخشى أنني لا أوافقك الرأي.

أشار إلى مقعد قريب: «أم تفضلين ربما أن نجلس هنا ونتحدث؟».

كان المقعد مكشوفاً للمنزل وسيراهما «مارتن» إن خرج إلى الشرفة... هزت رأسها.

ـ سنتمشى إذن على الشاطىء.

بدا على ملامحه نوع من التصميم والعزم الهادىء. فعلمت أنه لن يتراجع عن قصده.

ـ حسناً. لكني لا أستطيع الابتعاد لوقت طويل.

فإن افتقدها «مارتن» سيتسبب ذلك بالمزيد من المشاكل. استدارت وعبرت البوابة بسرعة، ليغلقها «كير» خلفها مباشرة.

بعد بضع خطوات على الأرض الرملية، رأت سيارة «مرسيدس» بيضاء متوقفة باتجاه الطريق، وقد فتح بابها الأمامي إلى جانب السائق.

راحا يقتربان منها و «سيرا» تحدق بها وهي تتساءل لم قد يترك أحد الضيوف سيارته مركونةً هنا بدل أن يوقفها على الأرض المرصوفة.

قد لا تكون بالطبع سيارة أحد الضيوف، بل أحد...

لم تكمل ما بدأت باستنتاجه. إذ دفعها «كير» إلى المقعد الأمامي وصفق الباب خلفها. وقبل أن تتمكن من استجماع أفكارها المشتتة، كان «كير» قد انسل إلى جانبها وراء المقود.

ـ ما الذي تفعله؟.

ـ فكرت في أن نقوم بنزهة في السيارة.

ـ لا أريد أن أذهب بنزهة في السيارة.

حاولت فتح الباب، لكنه لم يستجب لها. فقال «كير» بهدوءٍ وهو يدير المحرك ويضع حزام الأمان: «أخشى أنك تضيعين وقتك، فقد أقفلته».

صاحت به غاضبة: «افتحه في الحال. لا أنوي الذهاب إلى أي مكانٍ برفقتك».

مدَّ يده، لكن، بدل أن يفتح الباب، أحكم حزام الأمان حولها. وبعد برهة قصيرة، كانا يسيران نحو الطريق السريع.

اعترافه بإغلاق الباب جعلها تدرك أن قراره وعزمه على القيام بنزهة في السيارة، لم يكونا وليدي اللحظة والصدفة، بل نتيجة خطة محكمة وضعها بعناية بالغة. فراح قلبها يتسارع نبضه في وتيرة خانقة.

عندما بلغا الطريق السريعة الرئيسية، التف «كير» بالسيارة إلى اليمين، وبعد أن قطع عدة إشارات ضوئية، عاد ليأخذ طرقاً فرعية أكثر هدوءاً. جاهدت للسيطرة على ذعرها، وقالت بما أمكنها من ثباتٍ وثقة:

ـ ماذا تعتقد أنك ستحقق من هذا كله؟

ـ سأربح بعض الوقت معك لوحدنا، على الأقل. وفرصة لتسوية الأمور.

ـ وكم سيستغرق ذلك؟ يجب ألا أتأخر كثيراً.

ـ هذا يتوقف عليكِ أنت.

افترضت أنه يعني بقوله مدى استعدادها للإجابة عن أسئلته. فاطمأنت نوعاً ما وقالت: «إذن، إنها مجرد نزهة وسنعود مباشرة؟».

ـ ليس تماماً.

انتفض قلبها من الخوف، فسألته: «ما هي إذن بالتحديد؟».

ـ يمكنك أن تسميها: «إعطاءك الوقت لتعودي إلى رشدكِ».

ـ أفضل تسميتها: «عملية خطف».

ـ دعينا لا نرى الأمر من هذه الزاوية الكئيبة.

ـ سترى الشرطة الأمر من هذه الزاوية.

ـ ومن الذي سيستدعي الشرطة؟.

ـ مارتن.

ـ أشك في ذلك.

ـ سيصاب بالذعر إن أنا اختفيت بهذه الطريقة! آه، أرجوك «كير»، لا تفعل هذا. أنت تزيد الأمور سوءاً... لا أريده أن يغضب ويتوتر بهذا الشكل. فهو لا يزال مريضاً وقد عانى اليوم من المتاعب ما يكفيه.

ـ إن سار كل شيء حسب الخطة، فلن يعرف حتى أنك غادرت المنزل.

ـ لا بد أنه سيعرف. سيقطعون قالب الحلوى قريباً، وسيتوقع أن يجدني بقربه.

ـ ستطمئنه «كاتلين».

ـ لا أعرف كيف ستفعل ذلك.

ـ لقد تكلمت معها ودبرت كل شيء.

ـ أتعني أنها على علم بهذا... هذا....

ـ الخطف؟ نعم، هيَ على علم به. رغم أنيّ مسرور لأنها لا تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية.

ـ وكيف عساها تنظر إليه؟.

ـ إنها تراه كمهمّة إنقاذ.

ـ لست بحاجة للإنقاذ.

تذكرت أنه يسعى وراء الانتقام، منها أولاً لأنها تركته، ومن «مارتن» ثانياً لأنه سرقها منه. فقالت: «ألا ترى أنت الأمر كمهمة إنقاذ لي؟».

ـ لا. أرى أني أطالب بما هو لي.

ارتجفت «سيرا» حين أحست بنفسها كعظم يتقاتل عليه كلبان. فسألته بسخرية: «كيف ستطمئن «كاثلين» «مارتن»؟. بالطبع لن تقول له بأنه قد تم إنقاذي على يديك».

افترَّ ثغر «كير» الفاتن عن ابتسامة ساحرة، وقال: «ما خططنا له هو التالي: عندما يلاحظ أنك لستِ موجودة ويبدأ بالسؤال عنكِ، ستذهب «كاثلين» للبحث عنكِ. وستعود بعد بضع لحظاتٍ لتقول له إنك آويتِ إلى الفراش باكراً وقد أُصبت بصداعٍ قويّ. سيتذكر هو حتماً أنك ذكرت نوعاً من الصداع. ليس هناك أي مصّاعد في «باين كوف»، لذا فإن الاحتمال ضعيف في أن يصعد للتأكد من ذلك».

بالرغم من الارتياح الذي شعرت به، إلا أنها تاهت في جو المشاحنة هذا وعبثها.

لاحظ «كير» النظرة الفارغة على وجهها، فأضاف بلطف ورقة:

ـ وإلى جانب ضيوفه وعدد كبير من الخدم، فإن «روثويل» لديه «كاثلين» أيضاً، لا تنسي هذا. لا تجعلي الأمر يبدو كأننا تركناه وحيداً معزولاً وعاجزاً تماماً...

كان هذا صحيحاً بالطبع، لكن المسألة مختلفة جداً. «فمارتن» يريدها هي بالتحديد إلى جانبه دائماً. أو على الأقل، قريبة منه. إن اكتشف يوماً أنها تركت المنزل بهذه الطريقة السرية الماكرة، سيجعلها تدفع الثمن غالياً جداً، و «كاثلين» أيضاً. لذا، عليها أن تحرص على ألا يكتشف الأمر قط.

أملت في أن يعيدها «كير» إلى المنزل، عندما يكتشف أنه لن يحقق أي شيء... ويجب أن يحدث هذا قريباً.

وأضاف «كير»: «صدقيني، سيكون بخير. لن يلاحظ غيابك عن المنزل قبل ظهر غد».

ـ ظهر غد؟ أنت تنوي إبقائي هنا طوال الليل؟.

ـ أنوي إبقاءك هنا طيلة الفترة التي أحتاجها.

اتسعت عيناها، وبذلت جهداً كبيراً لابتلاع ريقها بعد أن ضاقت حنجرتها من الخوف. فسألته بصوتٍ مخنوق: «طيلة الفترة التي تحتاجها لتفعل ماذا؟».

سخر منها قائلاً: «آه، «سيرا». ما أوسع عينيك!».

كيف يمكنه إغاظتها في لحظة كهذه؟. لكن، قد يكون هذا كل ما في الأمر؟ ربما خطط للقيام بذلك بهدف الانتقام منها هي لأنها تركته، وليس من «مارتن».

أخذا يتجهان الآن نحو الجزء الحرشي من الجزيرة. كانت أشجار الصنوبر والورود البحرية تزين جانبي الطريق التي ألقت عليها أشعة شمس المساء الآفلة ظلال الأشجار الطويلة الداكنة.

أخذت نفساً عميقاً، وسألته بحذر: «أنت لست عازماً بالتأكيد على القيادة طوال الليل؟».

ـ لا.

ـ إذن، ما أنت عازم على فعله؟.

كانت تتخيل أثناء كلامها «كير» يوقف السيارة في مكان هادىء ومنعزل، فيأخذها بين ذراعيه، ويعانقها بشدّة... نظر إلى وجهها، وهز رأسه: «لا. ليس هذا ما أفكر به».

ثم أضاف بسخرية: «لم أعد مراهقاً منذ زمنٍ بعيد».

علا الاحمرار وجنتيها، وعضّت شفتها خجلاً قبل أن تعود بعد برهة لتسأله: «أنت لم تجب بعد عن سؤالي».

ـ أنوي أن آخذك إلى مكانٍ ناءٍ ورومنسيّ، حيث يمكننا تناول العشاء وتبادل الأحاديث، وكل ما يخطر ببالنا...

اعترضت بشدة: «أنت تعلم أني لن أذهب معك إلى أي فندقٍ من أي نوع. وإن كنت عازماً على ذلك فيستحسن بك أن ترجع من حيث أتيت».

ـ فندق؟ أنتِ تحلمين. فالفنادق عادة ما تكون مكتظة بالناس، وسبق أن قلت لكِ إني سآخذكِ إلى مكان منعزل، لا تستطيعين فيه طلب النجدة.

ـ وأين هو هذا المكان؟.

ـ ما رأيكِ في مزرعة وسط صحراء قاحلة؟.

أحست بخوف شديد. فمن يدري إلى أين قد يدفعه حب الانتقام؟ جاهدت لتتمالك نفسها، وبذلت محاولة يائسة أخيرة لإقناعه:

ـ أرجوك، «كير». يجب أن تفهم أن الأمور لم تعد كما في السابق. أنت تضيع وقتك...

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ أنا مخطوبة «لمارتن» الآن.

ـ كنت مخطوبة لـ «مارتن» حين عانقتك في ردهة المبنى ذلك الصباح. لكن استجابتك حققت كل ما أملت به، وأكثر.

ـ لم... لم أكن أقصد الاستجابة... لقد فاجأتني... أنا مرتبطة بـ «مارتن». ألا تفهم ذلك؟ أنا لا أحبك.

ـ دعينا نتأكد من ذلك.

راحت ترتجف وهي تعض شفتها وتغرق في صمتٍ مطبق.

ظلا متجهين نحو المناطق الريفية وعبرا بضع قرى صغيرة ومرّا بطاحونة، إلى أن بلغا مكاناً لم يكن حولهما فيه سوى حقول البطاطا.

كان القمر يهل خجولاً بنوره الباهت، ليسكب الضوء على الحقول الواسعة والدفء في قلب «سيرا». رأت على مسافة بعيدة مزرعة صغيرة، وقد أضيئت نوافذها بنور أصفر خفيف. فقال «كير»: «إنها مزرعة «مانتيز»، أقرب جار لنا».

وبعد دقيقة أو اثنتين، بدت أمام ناظريها مزرعة قديمة يتوسطها منزل تحيط به أشجار فارعة. لاحظت «سيرا» أن المنزل بسقفه الخشبي البني الذي يعلو النوافذ الناتئة يبدو وكأنه أخذ للتو من إحدى القصص الخيالية.

عجت الحديقة المهملة بالزهور في فوضى من الألوان المتضاربة. ونبت

العشب بينها، يحمل في جنباته أزهاراً زرقاء صغيرة لم تعرف لها «سيرا» اسماً. كانت المرجة الصغيرة وحدها التي تلقى العناية والاهتمام اللازمين.

أوقف «كير» السيارة على الممر المرصوف وخرج ليفتح لها الباب. مد لها يده بتهذيب بالغ ليساعدها على الخروج، فتجاهلتها. التف إلى الخلف وأخرج من صندوق السيارة حقيبة صغيرة.

نظرت إليها «سيرا» بحدّةٍ وأدركت أنها لا تملك سوى ما كانت ترتديه، إن هو عزم فعلاً على إبقائها هنا. فهي لم تحضر معها أي شيء، من ملابس داخلية إلى فرشاة أسنان وثياب للنوم، فضلاً عن الثياب التي قد ترغب في ارتدائها في الصباح. لكن هذه المشكلة سرعان ما تلاشت من ذهنها أمام المشاكل الحقيقية الأخرى التي ستواجهها.

وضع يده على خصرها وحثها على التقدم نحو فسحة مرصوفةٍ. أخرج من جيبه علاّقة مفاتيح، وفتح الباب ثم أضاء النور.

وجدت «سيرا» نفسها في غرفة جلوس فسيحة، تصعد منها السلالم إلى الطابق العلوي. كانت الجدران مكسوة بورق أبيض اللون، والأثاث جلدياً أسود. وقد فُرشت الأرض الخشبية بالسجاد الملون وتدلت على النوافذ ستائر سميكة.

ـ كما ترين، لم أتمكن بعد من القيام بأي تحسيناتٍ في المكان.

ـ إذن، أنت تملكه؟.

ـ نعم، إنه لي.

وضع الحقيبة أرضاً وخلع سترته المسائية وألقاها على كرسي قريب، قبل أن يحلّ ربطة عنقه ويرمي بها جانباً. أدركت «سيرا» فجأة وهي تراقبه بفم جاف، أنه بدأ بفك أزرار قميصه. حل الأزرار الثلاثة الأولى، وتوقف يعلّق بسخرية: «لا داعي لأن تشعري بالخوف. لستُ أنوي الانقضاض عليك ما إن نجتاز عتبة الباب. لا تجزعي، نحن هنا لتناول وجبة خفيفة ونتكلم عن بعض الأمور التي لا تزال عالقة».

علا الاحمرار وجنتيها لإدراكها أنه علم بما كانت تفكر به وهي تنظر

إليه. فأضاف:

- والآن، إن كنت ترغبين في الاغتسال وتبديل ملابسك قبل العشاء؟.

حمل الحقيبة الصغيرة واستدار يدلُّها على الطريق إلى الطابق العلوي. لحقت به «سيرا» وقلبها ينتفض في صدرها مع كل خشبة تقرقع تحت قدميها. فتح باباً إلى اليمين وأشار إلى الغرفة ذات الجدران البيضاء والسجاد الملون. وقد استقرّ في صدارتها سرير نحاسي كبير يغطيه لحاف قديم جميل، وإلى جانبه، رأت «سيرا» خزانة ثياب ضخمة قديمة الطراز، ومنضدة خشبية بسيطة.

- ليست فاخرة جداً، أليس كذلك؟ لكنها غرفة النوم الوحيدة المفروشة بالأثاث. كان المنزل ملكاً لرجل وامرأة مسنين، ولم يستعملاه إلا في بعض عطلات نهاية الأسبوع.

كل ما سمعته «سيرا» من كلامه هو: «لكنها غرفة النوم الوحيدة المفروشة بالأثاث» فأخذ قلبها ينتفض بشدة بين أضلاعها.

إن كان عازماً بالفعل على إغوائها، والمطالبة بما هو «ملك له»، فكيف ستتمكن من الهروب منه في هذا المكان المقفر النائي؟.

* * *

- لقد قلتِ هذا المساء إنك تعانين من صداع حاد...

قطع صوته حبل أفكارها المضطربة: «هل زال الصداع الآن؟».

- لا.

فتح باباً إلى يساره فلمحت جداراً مكسواً بالآجر الزهري اللون. ثم عاد بعد برهة يحمل كوباً من الماء وقرصين بيضاوين رماهما في راحة يدها، قائلاً: «تناولي هذا الدواء، إنه سيريحك حتماً».

وضعتهما في فمها وشربت جرعة ماء محاولة ابتلاعهما.

- هل أنتِ بخير؟.

- نعم، شكراً.

- إذن، سأتركك لترتاحي قليلاً. لنقل عشر دقائق مثلاً؟.

لاحظت «سيرا» بالرغم من نبرته المهذبة، أنه يوصيها بأن لا تتأخر أكثر من ذلك.

- آه، بالمناسبة، إن كنت ترغبين بتبديل ثياب السهرة، فإنك ستجدين بعض الملابس في الحقيبة.

لكن ذلك سيكون بمثابة موافقة واضحة على هذا الوضع. وكادت أن ترفض حين نظر إلى ثوبها المثير وأضاف: «رغم أني أفضل ماترتدينه الآن!».

بعد برهة، سمعت الباب يقفل وراءه.

لم يكن على الباب أيّ قفل أو مزلاج يمكنها من حجز نفسها في الداخل ومنعه من دخول الغرفة. كما أنها لن تستطيع سحب أي من قطع الأثاث الثقيلة لوضع حاجز أمام الباب.

أسرعت إلى النافذة لتفتحها وتنظر إلى الخارج. فلاحظت أن بإمكانها القفز بسهولة على سطح الشرفة الخشبيّ. لكنها قدرت أن الخشب القديم المهترىء لن يحمل حتى وزنها الخفيف. وإذا ما وقعت وحطمت عظامها، فإنها ستضع نفسها في مأزق أكثر صعوبة.

لا بد من طريقة أفضل للهروب... لكن عليها في البدء أن ترتدي ثياباً مريحة أكثر من ثوبها المسائي الطويل. كما أن ملاحظة «كير» الجريئة تدفعها إلى تبديل ملابسها على أي حال...

فتحت الحقيبة ووجدت فيها ملابس داخلية أنيقة وبنطالين من الجينز الأبيض، وتنورة مزررة من الأمام، وقميصين حريريين وبلوزة من الكشمير، فضلاً عن زوج أحذية. كما وجدت أيضاً ثوباً للنوم وعباءةً ومحفظة جلدية صغيرة تحتوي على كل أدوات الحمام التي قد تحتاجها.

لقد فكر «كير» بكل شيء بدقة بالغة. إن الجهد والعناية اللذين بذلهما «كير»، إنما يدلاّن بلا ريب على مدى الحذر الشديد الذي خطط به لاختطافها هذه الليلة.

أخذت ترتجف وهي تخلع ثوبها، ثم قررت أن تخلع سلسلتها الفضية أيضاً كي لا تفقدها مهما حدث. ولفتها بأحد القميصين وخبأته بعناية في

www.elromancia.com

أسفل الحقيبة، قبل أن تدخل إلى الحمام لتغتسل بسرعة.

بعد نحو عشر دقائق، كانت «سيرا» ترتدي بنطالاً وقميصاً وزوج الأحذية الذي وجدته في الحقيبة. ونزلت على السلالم.

لم تجد أي أثر لـ «كير»، فداعبتها فكرة الهرب من الباب الأمامي. وضعت يدها على المقبض، لكنها سرعان ما أدركت عدم جدوى الهرب جرياً على الأقدام. فما إن تجتاز الحديقة، ستجد نفسها في حقول من البطاطا تمتد على مرمى النظر، وسيتمكن «كير» من رؤيتها بسهولة في ضوء القمر الشاحب. بإمكانه اللحاق بها قبل أن تقطع نصف ميل على قدميها... إلاّ إذا أخذت السيارة!.

لا بد أن الطرقات في مثل هذه الساعة خالية تقريباً. فإذا تمكنت من العودة إلى «باين كوف» قبل أن يكتشف «مارتن» غيابها، قد تستطيع التظاهر بأن أياً من هذا لم يحدث فعلاً.

عادت بذاكرتها إلى الوراء، وتذكرت أن «كير» أسقط مفاتيح السيارة في جيب سترته التي ألقاها بعفوية على أحد الكراسي.

توقف قلبها عن الخفقان وهي تسحب المفاتيح من جيب السترة، واستدارت نحو الباب مرّة أخرى، ثم توقفت فجأة حين تذكرت أنها تركت سلسلتها الفضية في الحقيبة في الطابق العلويّ.

لا شك أن عودتها إلى الطابق العلوي مخاطرة كبيرة، لكنها لن تحتمل الذهاب دون احضارها... وإذا وجدها «كير»، فإنها ستعني له الكثير، مما سيدفعه ربما إلى معاودة محاولاته لإبعادها عن «مارتن».

حملت المفاتيح في يدها واتجهت نحو السلالم، حين سمعت صوت خاطفها يسألها: «غيرت رأيكِ؟».

انتفضت فجأةً واستدارت لتواجهه. كان «كير» واقفاً بباب المطبخ، بعد أن ارتدى بنطالاً مريحاً وقميصاً مفتوح الياقة وحذاء رياضياً.

ـ سأتولى أمر هذه.

مد يده نحوها، فسلمته المفاتيح على مضضٍ، ليضعها في جيب بنطاله.

لا بد أن هناك حماماً آخر في المنزل. فقد لاحظت شعره الذي لا يزال رطباً بعد الاستحمام، وذقنه التي حلقها للتو.

أخذت عيناها تطوفان رغماً عنها، على ثغره الجميل وذلك الشق في ذقنه القوي.

فتح «كير» الثلاجة وأخرج منها علبة كبيرة ملونة، وسألها: «ما رأيك بالبيتزا؟ لا يتطلب تحضيرها وقتاً طويلاً».

ـ لستُ جائعة.

ـ هل تناولت شيئاً من الطعام منذ وقت الغداء؟.

ـ لا.

ـ حسناً، بما أن مخططي لا يشمل تجويعك حتى الاستسلام، فإني أرغب بأن تأكلي شيئاً.

هزت رأسها، فأضاف قائلاً: «بالطبع، إن كنتِ لا تريدين فعلاً أن تأكلي، بإمكاننا أن نفعل شيئاً آخر».

ابتلعت ريقها بصعوبة، وأخذت ترتجف خوفاً بعد سماع كلماته. فرفع حاجبه الداكن قائلاً: «ماذا تختارين إذن؟».

ـ أفضل تناول البيتزا.

ـ لا أعتبر ذلك مديحاً، لكنه مؤثر نوعاً ما. لقد فقدت بعض الوزن مؤخراً. فالثياب التي اشتريتها لكِ تناسب المقاس الذي كنت ترتدينه في السابق، لكني أراها الآن فضفاضة عليك.

كادت تعلق على ما قاله حين تذكرت فجأة كيف انفجر غاضباً عندما اشترى لها «مارتن» الثياب للمرة الأولى في تلك الليلة.

لكن «كير» سبر غور أفكارها كالعادة، وقال بتجهُّم: «كان ذلك مبرراً في هذه الحالة».

ـ على أيّ أساس؟

ـ على أساس أن ثوباً مسائياً لا يعد مثالياً في عملية اختطاف كهذه.

عضت على شفتها وغرقت في صمت عميق، فهز كتفيه وتابع تحضير

وجبة العشاء. حضر طبقاً من السلطة الخضراء ووضع البيتزا في الفرن، ثم ملأ كوبين من العصير وقدم لها واحداً قبل أن يفتح الباب الخلفي ويتقدمها إلى الخارج: «فكرت في أن نتناول الطعام في الشرفة لكي نستمتع بضوء القمر».

كانت الزهور تحيط بالشرفة من كل جانب، وكان هناك كرسيان وطاولة صغيرة، فضلاً عن أرجوحة صغيرة. اتجهت «سيرا» نحو كرسي لتجلس عليه، فأمسك «كير» بمرفقها وقادها نحو الأرجوحة حيث جلس إلى جانبها: «يمكننا أن نرتاح هنا أيضاً».

لم يضيء «كير» النور على الشرفة، التي غمرها ضوء القمر الأزرق الفضي، وأسبغ على الجو هدوءاً وسكينة لا مثيل لهما.

جلسا بعض الوقت يحتسيان شرابهما بصمت تام. ثم التفت «كير» إليها وسأل: «كيف أصبح الصداع؟».

ـ أفضل بكثير. شكراً.

عندما لم تُضف المزيد، استمر «كير» بحديثه الرسمي، قائلاً: «إذن، ما رأيك بمنزلي الجديد؟ هل أعجبكِ؟».

كانت ستحبّه في وضع طبيعيّ، لكنه، في مثل هذه الظروف، لم يكن إلاّ سجناً آخر. فكّرت في عدم الإجابة، لكنها لم تجد أي فائدة في تعقيد الأمور، فقالت بنبرة عادية: «يبدو لي اختياراً غريباً».

ـ أردت منزلاً في «لونغ آيلند» قريباً في البحر. لكني لم أكن راغباً بمكان فاخر أنيق يحيط به الجيران من كلّ جانب. إن هذا النوع من المنازل الريفية القديمة، أصبح من العقارات المرغوبة والمطلوبة جداً في «لونغ آيلند». لذا، حين عُرض للبيع قرّرت الاحتفاظ به.

ـ لإمضاء عطلات نهاية أسبوع رومنسية؟.

خرجت الكلمات من فمها قبل أن تتمكن من منعها. فأضافت بسرعة: «إن كنت أتذكر جيداً، فقد استعملت كلمة «رومنسية»...».

حين سمع نبرة صوتها الساخرة، رفع حاجبه الداكن قائلاً: «ألا ترين

مكانٍ غارقٍ في التاريخ...».

تنهد طويلاً وهو يقف: «بإمكاننا أن نأكل أيضاً. لا بد أن البيتزا أصبحت جاهزةً الآن».

عندما عاد يحمل صينية كبيرة، كانت «سيرا» قدانتقلت للجلوس على كرسيّ عند الطاولة. فأومأ «كير» برأسه برضىً، وعلّق قائلاً: «بما أني أخفتكِ حين عرضتُ عليكِ البديل إن لم تأكلي، يسرني أنك لم تبدلي رأيك بالنسبة إلى تناول الطعام».

رفعت رأسها عالياً وقالت كاذبة: «أنت لم تخفني...».

عرفت من الابتسامة المرحة التي ارتسمت على شفتيه أنه لم يصدق كلمة مما قالت، فأضافت بحدة: «شعرت بأني جائعة في النهاية».

ـ هذا جيد.

قدم لها نصف البيتزا مع كمية كبيرة من سلطة الخضار. التقطت الشوكة والسكين بصمتٍ، لكنها أدركت بعد تناول القطعة الأولى، أن ما قالته كان حقيقياً أكثر مما تصورت.

بعد الطعام، قال «كير» بمرح: «أريد أن أشكر «كاثلين» لأنها جعلت هذه الجلسة ممكنة».

التزمت «سيرا» الصمت وقد بدا عليها التوتر، فأضاف «كير» بصدق: «لا تتحاملي عليها. لقد فعلت «كاثلين» ذلك لمصلحتكِ».

ـ لقد أخطأت. كان عليها أن تفكر «بمارتن».

ـ ألا ترين أنها فكرت به؟ إن كان لديك ولد عنيد تحبينه جداً، هل سترغبين بأن يحتفظ هذا الولد بشيء تعلمين أنه سيؤذيه؟.

ـ إن الطريقة الوحيدة التي قد أؤذي بها «مارتن»، هي أن أرحل مع رجل آخر، وأن لا يجدني إلى جانبه حين يحتاج إليّ.

ـ أعتقد أنها كانت تفكر بطريقة أشمل وأوسع بكثير. لقد سبق أن مر بتجربة زواج فاشل في الماضي. ماذا عن المستقبل، حين يتزوج بامرأة لا يحبها حقاً، ولا تحبه هي بدورها؟.

ـ لكنه يحبّني!.

ـ إنه مفتون، مهووس، أو سمِّه ما شئتِ... باستثناء الحبّ. الافتتان والإعجاب سرعان ما يتلاشيان ولا يبقى سوى الفراغ...

تكلّم «كير» باندفاع وقناعة تامّة بحيث اضطرّت لموافقته الرأي. لكن ذلك لا يغيّرُ شيئاً، فلن تتمكن من الابتعاد عن «مارتن» قبل أن تخمد مشاعره نحوها وتتلاشى، أيّاً تكن تلك المشاعر.

ساد صمت طويل و «سيرا» لا تحرّك ساكناً كتمثال من رخام. جالت عينا «كير» عليها بأهدابهما الثقيلة، ثم علّق قائلاً: «أكاد أقسم أنك توافقيني في ما قلته للتوّ».

ـ هذا صحيح.

فسألها بنبرة غريبة: «لكن ذلك لا يغير شيئاً من الواقع؟».

ـ لا.

لم يتمكن «كير» من الجلوس طويلاً فوقف على قدميه وراح يذرع أرض الشرفة جيئة وذهاباً.

ـ ما زلنا نملك الوقت الكافي لإعادتي إلى «باين كوف».

لمعت أسنانه البيضاء في ضوء القمر وهو يبتسم كنمر يتربص بفريسته، وقال: «أنا لا أستسلم بهذه السهولة... والآن، إن كنتِ ترغبين، سأعدّ بعض القهوة».

حمل الصينية ودخل بها إلى المنزل، بينما جلست تحدّق بصمت بالحديقة. لاحظت أن القمر محى بضوئه ألوان الورود والخضرة ليسكب عليها لوناً فضياً أثيرياً، بينما تراقصت في السماء الداكنة غمامات رماديّة صغيرة كإشاراتٍ من دخان...

عاد «كير» يحمل القهوة، وسألها: «هل تريدين العودة إلى الأرجوحة؟ إنها مريحة أكثر من هذه الكراسي».

أطاعته «سيرا» رغم أنّها كانت تفضّل البقاء حيث هي. لكنها علمت أن ما طلبه لم يكن اقتراحاً بقدر ما هو أمرٌ حازم، بالرغم من نبرته اللطيفة

المهذّبة. تأكّدت من صحة ظنونها حين أومأ برأسه برضى، ثم علّق قائلاً: «يا إلهي، لقد تعلمت الإطاعة بشكل صارم».

لم تكن «سيرا» عنيدةً بطبيعتها، لكنها تمنت لو تنزع تلك الابتسامة عن هذا الوجه الوسيم بلطمة قويّة.

وضع الصينية على الطاولة وسكب فنجانين من القهوة وقدم لها واحداً. التزما الصمت حتى انتهيا من شرب القهوة. ثم أتى يجلس إلى جانبها بعد أن وضع الفنجانين على الصينية، وقال بلهجة حاسمة: «والآن، أعتقد أن الوقت حان لنتكلّم بصراحة».

ـ سبق أن قلتُ لك، ليس لديّ ما أقوله.

ـ وقد أوضحتُ لك أنني لا أوافقك الرأي. فثمة أمور أرغب في معرفتها.

ـ ماذا لو لم أجب عن أسئلتك؟.

ـ لدي الكثير من الوقت. ولا أمانع إن تطلب الأمر أسابيع عدّة لأحصل على أجوبة على تساؤلاتي.

استسلمت «سيرا» لعلمها أنها ستخسر أمام تصميمه وعناده، فسألته: «ما الذي ترغب في معرفته؟».

ـ أريد أن أعرف كل ما يتعلّق بعلاقتك بـ «روثويل». لماذا تقيمين مع رجل فظ لا تحبينه؟

ـ «مارتن» ليس فظاً... ليس كما تتصوّر.

التقط يدها، وراح يتأمل الآثار التي خلّفتها أصابع «مارتن» على معصمها الرقيق. وأضاف: «كيف تصفين إذن من يخلّف الكدمات عمداً على معصمكِ؟».

ـ ما كان ليفعل ذلك لو لم تُثر أنت غضبه.

ـ ما كان عليه أن يفعل ذلك. ولماذا يصبُّ جام غضبه عليكِ أنتِ؟.

ـ لم يكن «مارتن» هكذا في السابق. لقد غيّره الحادث... وعانى من آلامٍ فظيعة، ومن القلق والكبت...

ـ أنا أتفهم كل هذا، لست مسخاً قاسي القلب. لكنك تأذيت من الحادث أنتِ أيضاً، فلماذا يجعلكِ تدفعين الثمن؟.

ـ إنّه لا يفعل ذلك!.

ـ لا تكذبي عليّ. أنا أعلم تماماً كيف يعاملكِ. وقد أخبرتني «كاثلين» الكثير.

ـ أظنُّ أنك سعيت عمداً للتعرف إليها؟.

ـ نعم.

لم ينكر «كير» أي شيء، بل أوضح مفصّلاً: «علمت منذ وقت قليل أن أمراً غريباً يحدث في شركة «أنغلو ـ أميركان». وكان «روثويل» قد اكتسب سمعة «الناسك»، ممّا لا يشبه طبعه قط. ثم سمعت أنه تعرّض لحادثٍ ما، فتمكنتُ من استنتاج أمور عديدة...».

ثم تابع: «راقبتُ مبنى «واربورتون»، بحيث بتُّ على اطلاع كافٍ على الوضع قبل انتقالي للسكن فيه. لكني كنتُ بحاجة لأن أراقب عن كثب، إذا صح التعبير. فكانت ممرضته الاختيار المناسب، فسعيت جاهداً لأتعرّف إليها ودعوتها لشرب القهوة كلما سمح لها وقتها بذلك... ولم يكن ذلك صعباً... «كاثلين» تتمتع بحسّ عملي إلى جانب جمالها. إنّها امرأة لطيفة ورقيقة حقاً... وهي مخلصة جداً لـ «روثويل»... لقد تبادلنا أحاديث هامّة. كنت أطرح عليها أسئلة عادية جداً من وقت لآخر، وأحصل منها على أجوبة كافية. فحاولت أن أقرأ بين السطور وأن أتنبّه لما لم تقله، وتمكنت من تكوين صورة واضحة تماماً عمّا كان يجري. لكن ما لا أعرفه، لماذا تتحملين كلَّ هذا؟».

ـ لو أن الأمور هي بالسوء الذي تصفها به، لكنت رحلت بعيداً ببساطة.

ـ لماذا لم تفعلي ذلك؟.

ـ لأنها ليست بهذا السوء. قد يكون «مارتن» قاسياً بعض الأحيان ومتطلباً، لكنه ليس فظّاً!.

ـ إنها مسألة رأي. أعتقد أنه لا يدع لك هامشاً كبيراً من الحرية.

ـ إنه لا يقيدني بالسلاسل.

ـ لكنك اضطررت للتسلل خارج الشقة دون علمٍ منه لتتحرري بعض الشيء.

مررت لسانها على شفتيها الجافتين، وقالت: «لأنه كان مريضاً جداً، ويريدني إلى جانبه».

ـ لتقومي برعايته؟.

ـ لا، ليس تحديداً.. فـ «كاثلين» تقوم بذلك. إنه فقط لا يحب أن أبتعد عن ناظريه.

ـ كي لا تتركيه وترحلي دون رجعة؟ لا يمكنه أن يثق بكِ تماماً.

لم تجبه، فغير «كير» وجهته: «قلت لي إنك كنتِ تعملين في المنزل كمساعدته الشخصية؟.

ـ نعم.

ـ لكنه لا يدفع لك أي أجرٍ أو راتب؟.

ـ لا.

اعترفت «سيرا» بالحقيقة. وعلت وجهها الحمرة. فعقبت قائلة: «لكنه يؤمن لي الطعام وسقفاً يظللني ـ سقفاً فاخراً في الواقع ـ وهو يحثُّني دائماً على شراء ما أرغب به وتسجيله على حسابه.

ـ وهل تفعلين ذلك؟.

هزت رأسها بعد برهة: «لا يبدو ذلك منصفاً عندما لا أقدّم له شيئاً في المقابل».

ـ إذن، أنت ترفضين أن تصرفي من ماله... لكني أعتقد أنك كنت ستفعلين لو أنك كنت زوجته؟.

ـ تختلف الزوجة كثيراً عن الخطيبة... رغم أني سأكون سعيدة بالاستمرار بالعمل إن هو أراد ذلك.

ـ تعنين أن تكوني مستقلة ماديّاً؟ أشك في أن يرغب بذلك. فكل

استراتيجيته تقوم على إبقائك معتمدة عليه مادياً ومعنوياً... وقد أقول إنك لا تحبين ذلك؟.

- لا.

- لهذا السبب إذن كنتِ هذه الليلة ترتدين الثوب نفسه الذي ارتديته في حفلة «أنغلو - أميركان»؟.

- لم ترني إلا قليلاً تلك الليلة. يدهشني أنك تذكر الثوب... أنا آسفة، أعلم أنك اضطررت للمغادرة في تلك الليلة.

- ليتني لم أُضطر. فلو أني بقيت معك حينها، لكانت الأمور اختلفت كلياً، ولكنتِ الآن ربما تضعين خاتمي في إصبعك، بدلاً من خاتمه هو.

- أنت تصدقني إذن أن المال لم يكن ما أسعى وراءه؟.

- لقد بدأت أصدقكِ.

وساد صمت طويل متأمل. فجأة، أخذت فراشة ضخمة هائجة ترتطم بعنف على زجاج النافذة، بعد أن جذبها الضوء في الداخل.

وقف «كير» من دون أن يتكلم وفتح النافذة قليلاً، ثم أطفأ النور، تاركاً ضوء القمر ينير المكان. فتحررت الفراشة من انجذابها المميت للضوء، وطارت بعيداً. همست «سيرا»: «شكراً لك. كان هذا عملاً لطيفاً».

جلس في مقعده ثانية، وقال بهدوء: «أكره رؤية أيّ كائن حي يسير في دربٍ يلقى في نهايتها حتفه. فالحياة أغلى بكثير من أن نهدرها».

كان على حق. إنها ستهدر حياتها عندما تتزوج برجلٍ لا تحبه، رجل لا يريد إنجاب الأولاد... لكن، هل أمامها أي خيار آخر..؟.

- هل كانت علاقتكما حميمة جداً قبل الحادث؟.

خرج سؤال «كير» بشكل غير متوقع، فأجفلت «سيرا».

- ماذا؟.

- قلت هل كانت علاقتكما حميمة جداً قبل الحادث؟.

- لا. لم تكن كذلك.

سمعت «كير» يتنهد بارتياح شديد، قبل أن يسأل ثانية: «لماذا؟».

- لأني أرفض إقامة علاقة غير شرعية خارج إطار الزواج، كما أن «مارتن» لا يحبذ ذلك أيضاً.

- مما يعني أن «مارتن» لم يحاول حتى، عندما عرف أنك ترفضين ذلك. لم يردك أن تخافي منه ومن نواياه قبل أن تتزوجا... ثم وقع الحادث، وهو ينتظر منذ ذلك الحين... كم أرثي لحاله، هذا المحتال المسكين.. إذن، نحن الاثنان في المركب نفسه.

لم تدر «سيرا» ماذا يقصد بقوله، فسألته: «لا أعرف عمَّ تتكلم».

- أقصد أنيَ و «مارتن» ننتظر امرأة واحدة، ونرغب في الزواج بها. امرأة واحدة أوقعتنا في شباكها...

خطر لـ «سيرا» أن الرجلين يريدانها، لكن أياً منهما لا يحبها. إنه لأمر مخيف أن تقع ضحية هوس رجل واحد بها، فكيف هي الحال مع رجلين...

لقد أحبها «كير» يوماً، أو كما قال هو... لكنه سمح للمرارة أن تفرقهما، أو ما دعاه بـ «خيبة الأمل»، لإخفاء مشاعره الحقيقية. والآن، أضاف إلى رغبته بامتلاكها، رغبة أخرى أشد قوة، وهي رغبة الانتقام. أرعبتها هذه الفكرة فارتعدت فرائصها.

رأى الخوف مرتسماً بوضوح على وجهها، فعاد يشن هجومه مرة ثانية: «ما زلت لم تجيبي عن سؤالي. لماذا تبقين معه «سيرا»؟».

أجابته يائسة: «هل يجب أن تعرف لماذا؟».

قطب «كير» حاجبيه الداكنين وقال عابساً: «قولي لي، لو أن الحادث لم يقع هل كنتِ ستبقين معه وتتزوجين به؟».

شعرت «سيرا» بثقل السؤال، فأجابت بصلابة تمكنت من التظاهر بها:

- هذا ما كنت سأفعله بالطبع.

- ما كنتِ لتعيدي النظر والتفكير بالأمر؟.

أجابت من دون أن تنظر إليه: «ما الذي يجعلك تطرح هذا السؤال؟».

- شيء ما زلَّ به لسان «شيرل». عندما حاولت استنطاقها، بدت

منزعجةً. لكنها كانت تشعر أنك تريدين الخروج من هذا المأزق. وعلى الرغم من أن أخيها متيَّم بكِ، إلا أنها كانت تعرف أنك لا تحبينه. ظننت في البدء أنك تحبينني أنا. وحين رميت بي جانباً وبدأت بالخروج معه، قالت إن ملايين «روثويل» قد جذبتك.

لم تدر «سيرا» ولم تفهم السبب الذي يجعل «كير» واثقاً إلى هذا الحد من أنها تسعى وراء مال «مارتن». لكن يبدو الآن أن «شيرل» هي من أدخلت الفكرة إلى رأسه.

ـ لكن «روثويل» وعد نفسه بالزواج بكِ، وظنت «شيرل» أنك ستوافقين من أجل الحصول على زوج ثري. لكنها بدأت بتغيير رأيها على ما يبدو... إذن، إن ما أريد معرفته هو، هل غيرت رأيكِ؟ هل غيرته «سيرا»؟... أريد الحقيقة.

أنهكتها أسئلته وتصميمه الذي لا يهتز، فاعترفت بصعوبة بعد أن أدركت أنه لن يستسلم:

ـ نعم، لقد غيرت رأيي. كان يجب ألا أوافق على الزواج به منذ البدء... لكنه كان لطيفاً جداً ومسلياً عندما أشعر بالوحدة. أعطاني وقته وشملني باهتمامه ورعايته كما لو كنت أكثر أهمية من أعماله، وكنت ممتنة له. يبدو أني خسرتُ...

كادت تضع حرف (ك) في آخر الكلمة، حين توقفت فجأة وعضّت شفتها. حدّق «كير» بوجهها قائلاً: «يبدو أنك خسرتِ...؟».

ابتلعت ريقها وتابعت بتلعثم: «يبدو أني خسرتُ رغبتي في العمل. وأظنُّ أني أقنعتُ نفسي بأن زواجي «بمارتن» سيساهم في تحويل الامتنان والعاطفة اللذين كنتُ أشعر بهما نحوه إلى حبّ حقيقي. ولم نكن مخطوبين منذ فترة طويلة جداً حين أدركتُ الخطأ الذي ارتكبته. حاولت أن أخبره بحقيقة مشاعري، لكنه رفض أن يأخذ كلامي بجدية، وقال إن السبب في ذلك هو التوتر الذي يسبق الزواج عادة».

ـ لذا، تركت الأمور تحصل ببساطة؟.

ـ نعم، لبعض الوقت. وسرعان ما أدركتُ أن عليّ القيام بخطوة ما. وعزمتُ على إعادة خاتمه له في عطلة نهاية الأسبوع التي كنا متوجهين فيها إلى «باين كوف»، العطلة التي وقع فيها الحادث. لكن شيئاً لم يتم بشكل صحيح...

كان «كير» جالساً كتمثال من حجر، لا يحرك ساكناً ولا ينبس بكلمة. كانت عيناه حيتيْن فقط في قناع وجهه الساكن. وتابعت «سيرا» بيأس تامّ: «لو أني فسختُ الخطوبة قبل وقوع الحادث، لكان الأمر مختلفاً. لكني لم أفعل. وبعد ذلك، كان الأوان قد فات. لم أستطع الرحيل هكذا والابتعاد عنه وهو مصاب بشكل خطير».

ـ أنتِ إذن مصممة على الزواج برجل لا تحبينه؟.

ـ ما بيدي حيلة.

أمسك «كير» بيدها، وقال بإلحاح: «لا تتحاملي «سيرا»، لا يمكنك التضحية بنفسك بهذا الشكل».

انتزعت يدها منه بقوة ورجته قائلة: «دعني وشأني، لا أستطع احتمال المزيد».

ـ أجيبيني فقط عن سؤال واحد إضافي بصدق تام. هل وافقت على الزواج بـ «روثويل» لأنك ظننتِ أني لم أعد أكترث لأمركِ؟.

ـ لأني ظننت أنك لم تكترث يوماً.

رأت بريق النصر يلمع في عينه فسألها بحدة: «كيف كنتِ تشعرين نحوي؟ هل توقفت عن حبّي؟».

ـ أجبتك عن سؤالك الإضافي. آه، أرجوك «كير»، أعدني إلى المنزل. لم يفت الوقت بعد.

رأت الرفض مرتسماً على ملامح وجهه، فصرخت: «ألا ترى أن كل ما تفعله عقيم؟ لن أترك «مارتن» قط طالما أنه بحاجة لي. إن إبقائي هنا ما هو إلاّ مضيعة للوقت، فلن يغير الكلام أي شيء».

ـ الكلام قد لا يغير شيئاً.

كان هذا صحيحاً، فلو اقترب منها «كير» أو همس أو احتضنها، ستذهب كلّ محاولاتها أدراج الرياح فما تشعر به نحوه كان أقوى من أي مقاومة ومن أي شعور بالذنب. لكنها أدركت ضرورة استمرارها في المقاومة، فقالت بعزم وتصميم: «ما من شيء سيغير الواقع أبداً».

- علي إذن أن أحاول طريقة ودية في الإقناع. ولا أظن أن حملك على الاستجابة سيكون أمراً صعباً.

- حتى وإن حملتني على الاستجابة بطريقة ما، فإن ذلك لن يغير شيئاً، ولن تستطيع إبقائي هنا إلى الأبد، وما إن تتركني أذهب حتى أهرول عائدة إليه..

- وماذا ستقولين له؟.

- الحقيقة، إن كان ذلك ضرورياً.

- لن تعجبه الفكرة قطّ.

- آه، أعلم أنه سيتشيط غيظاً، لكني سأركع أمامه لكي يسامحني إن اقتضى الأمر...

تركت كلماتها في نفسه الأثر الذي توقعته. وشعرت بتصلب «كير» وانزعاجه. وعرفت من دون أن تنظر إليه، أنه يرتجف حتى العظم. لكن ذلك لم يساهم في ثنيه عن عزمه وتصميمه. فقال بقسوة: «وتتركينه يخلف الكدمات على جسدك مرة أخرى؟ كلا! إن من سيخلف الكدمات هو أنا، إن عدت إلى سجنه مجدداً».

***

٦ ـ كيف تشعر بخفقات قلبٍ لا تحبُّها؟

وقف «كير» على قدميه وأشار لها لتدخل إلى المنزل. انصاعت «سيرا» لرغبته من دون أيّ اعتراض، ودخلت إلى غرفة الجلوس.

جلست على الأريكة باضطراب، وتقدّم «كير» ليجلس إلى جانبها:

- هل ترغبين بالصعود إلى الطابق العلوي لكي تحاولي أخذ قسط من النوم؟.

- لا.

أجفلت «سيرا» من سؤاله، وقد تذكرت ما قاله لها سابقاً: «إنها غرفة النوم الوحيدة المفروشة بالأثاث...».

- لكنكِ لن تبقي مستيقظة حتى الصباح؟ لا بدَّ أن تأخذي قسطاً بسيطاً من النوم بعد كل هذه المتاعب.

اقترب «كير» منها وأمسك بكتفيها يديرها نحوه ويقرّبها منه بلطفٍ وهدوء. لكنَّ «سيرا» راحت ترتجف بعد أن تسارعت نبضات قلبها، وحاولت الابتعاد عنه، فوضع رأسها على كتفه وحضنها بقوّة ولهفة استسلمت معهما «سيرا» وأغمضت عينيها وهي تشعر بدفء ذراعيه القويتين الرقيقتين. فهمس في أذنها وهو يملس على شعرها: «لا تخافي حبيبتي. لن أؤذيك أبداً».

هدأت «سيرا» وتراخت في حرارة ذراعيه، لكنها عرفت أنه لن يتمكّن من حملها على تغيير رأيها وموقفها. فالأمر ليس بهذه السهولة، ولن تبتعد

www.elromancia.com

عن «مارتن» طالما أنه بحاجة إليها. كما أنَّ «كير» لا يحبّها، بل يسعى للانتقام من «مارتن». وكانت هي السلاح الأقوى في يدي الرجلين، يتنازعانه في ما بينهما كأنها قطعة من حديد صلب لا مشاعر لها؛ متناسيان أحاسيسها وعواطفها.

لاحظ «كير» وجهها المضطرب، وقرأ على ملامحها رفضها له. فقال ببطء: «منذ سنة خَلتْ، كنتُ أظنُّك تحبينني. هل كان هذا صحيحاً، «سيرا»؟ يجب أن أعرف الحقيقة».

فتحت عينيها المثقلتينْ ونظرت إلى وجهه الشاحب تحت ضوء القمر الذي أنار الغرفة كلّها. وهمست كأنها تخرج الكلمات بشقّ النفس: «نعم، لقد أحببتك».

ـ وهل ما زلت تحبينني؟.

إن هي اعترفت الآن بحبّها له، ستتلاشى كلّ آمالها بكسب المعركة. فاستجمعت كلّ ما تبقّى لها من قدرة ورباطة جأش، وقالت: «لا.».

انتفض قليلاً كما لو أنها صفعته بقوّة. ثم أجابها بهدوء تامّ:

ـ حسناً، حتى وإن كرهتيني، فلن أقف مكتوف اليدين وأراقبك تهدرين حياتك ومستقبلك.

رفع يدها اليسرى وأخذ ينزع منها الخاتم الماسيّ بهدوءٍ وبطء. فاسترجعت ذاكرتها صدى تلك اللحظة في الماضي التي نزع «مارتن» فيها خاتم «كير» من إصبعها. لكنها أحست هذه المرة كمن ينتزع القيود والأغلال من يديها.

ـ لم... لماذا تفعل ذلك؟.

جاء اعتراضها خجولاً ومتردّداً. فأجابها: «لا أستطيع أن أضمّك وأنتِ تصعين في إصبعك خاتم رجل آخر».

ـ لكنّي لا أريدك أن تضمني. أنت تعلم أنّي لستُ من ذلك النوع من الفتيات. والآن، هل لك أن تبتعد عني من فضلك؟.

أمسك بها بقوة وضمها إلى صدره رغماً عنها، قائلاً: «أنتِ لي،

وستكونين لي مدى الحياة».

لم تستطع «سيرا» مقاومة حبّها له. لكن، كيف لها أن تحب رجلاً لا يسعى لشيء سوى الانتقام من خطيبها؟ وكيف تشعر بخفقات قلب لا يحبُّها؟ راحت تبكي بصمتٍ، تكره ضعفها أمام هذا الرجل الذي استولى على قلبها وعقلها. تنهدت باسمه رغماً عنها، فهدأها «كير» وهو يمسح دموعها قائلاً: «أعلم حبيبتي... أعلم».

شعرت «سيرا» بإرهاق شديد وأدركت أنّها لن تفلح في إقناعه بضرورة عودتها إلى «باين كوف»، فقالت: «أنا متعبة جداً، وأرغب في النوم. وأرغب أيضاً في البقاء لوحدي. أتعدني بألاّ تلحق بي إلى الطابق العلويّ؟ أم أن ذلك يُفشل مخططاتك؟».

ـ تعلمين جيّداً أن مخططاتي لا تشمل أذيتك، بل إنقاذك. سبق أن قلت لكِ في الماضي، إنَّ ما يجمعنا ليس عابراً. تعالي، سأوصلك إلى غرفة النوم.

ـ لا داعي لذلك.

لم يأبه «كير» بما قالته وقادها على السلالم إلى غرفة النوم في الطابق العلويّ. حين دخلا الغرفة، اقترب منها وعانقها بلطف بالغٍ لم تستطع مقاومته، وتمنّى لها نوماً هنيئاً.

بعد برهة، سمعت «سيرا» باب الغرفة يُغلق وراءه. فجلست على السرير تكاد تفقد وعيها من شدّة الإرهاق. ثم استلقت على ظهرها وأخذت تحدّق بالسقف وهي تفكّر في الطريقة المثلى التي قد تخرجها من هذا المأزق... لا بدَّ أنَّ «مارتن» الآن قد اكتشف غيابها عن المنزل وراح يصبُّ جام غضبه على «كاثلين»...

استيقظت في ساعات الصباح الأولى عندما شعرت بأصابع دافئة تملّسُ شعرها برقّة. فتحت عينيها فجأة وانتفضت مذعورةً لإدراكها وجود «كير» معها في غرفة النوم.

كان قد دخل للتوّ ليطمئن عليها، فوجدها نائمة كالملاك. ولم يتمالك نفسه فجلس على طرف السرير إلى جانبها يملس على شعرها برقّة.

نزلت «سيرا» عن السرير بارتباك شديد، ولم تنبس بكلمة واحدة. فاقترب منها «كير» وعانقها بلطفٍ بالغ، ثم سألها: «هل نمتِ جيداً؟».

ـ نعم، شكراً.

أمسك رأسها بين يديه وابتسم لها قائلاً: «أين تفضلين الإقامة؟».

ـ الإقامة؟

ردّدت الكلمة الأخيرة في دهشة جعلتها تستيقظ من أحلامها العذبة التي كانت تعيشها بين ذراعيه، لتعود إلى الواقع المرير.

شعر بجسدها كله يتصلّب بين يديه، فسألها بحدّة: «لا يُعقل أنّك ما زلتِ تريدين العودة إليه؟!».

انتزعت نفسها من بين يديه، وجلست على السرير عندما عجزت قدماها عن حملها. وأجابته: «عليّ أن أعود».

بالرغم من النبرة القلقة المتردّدة في صوتها، إلا أنها عكست تصميمها الذي ارتجف منه «كير». وسألها: «لا تخادعي نفسكِ، «سيرا». أنتِ ما زلتِ تحبينني، أريدك أن تبقي معي، «سيرا».

ـ قلت لك إنّي لن أبتعد عن «مارتن» طالما أنه بحاجة إلي.

جلس إلى جانبها ومرّر يده في شعره الأسود في ذهول. لا، إنه لا يصدق ما يسمع، ولن يصدق قط. ثم شد على أسنانه وهو يقول: «لن أسمح لك قط بالذهاب».

ـ لا يمكنك إيقافي، إلا إن كنت عازماً على احتجازي كسجينة هنا إلى ما لا نهاية. وأنت تعلم أن ذلك ليس ممكناً.

لجأ إلى طريقة أخرى لإقناعها: «هل أنتِ متأكدة من أن «مارتن» سيرحب بعودتكِ بعد أن يعرف أنك غادرتِ المنزل معي خلسةً وأمضيتِ الليلة هنا برفقتي؟».

لم تساور «سيرا» أي شكوك حول ردّة فعل «مارتن». فأجابته بثقة: «نعم، أنا متأكدة من ذلك. فكما قلت بنفسك، إنّ «مارتن» متيّم ومهووسٌ بي».

ـ ما من أحد يستطيع أن يكون مسؤولاً عن هوس الآخر... اللّعنة «سير»! إن كنتِ تعتبرين نفسكِ مسؤولة عن هوس «مارتن»، عليكِ إذن أن تتحملي أيضاً مسؤولية هوسي أنا بكِ.

هزّت رأسها وهي تجيبه قائلة: «لا أعتبر نفسي مسؤولةً عن هوس أيّ رجل. ليس الأمر كما تظن».

ـ ما هو الأمر إذن؟

ـ أتمنى أن تعيدني إلى «باين كوف» قبل أن يكتشف غيابي...

ـ لن أعيدك قط بملء إرادتي...

شعرت بنبرة التهديد في صوته فحاولت إقناعه بالتخلّي عما يدور في رأسه، فأجابته:

ـ لن يغيّر ذلك شيئاً.

ـ لا أصدق أن إمضاءك الليلة في منزلي لم ولن يحدث أيّ فرق يُذكر.

ـ ساهم هذا في تعقيد الأمور وجعلها أكثر صعوبة، لكنّه لم يغيّر شيئاً. لا يزال «مارتن» قابعاً في كرسيّ نقّال، وأنا متأكدة من أنه لا يزال يريدني.

ـ أن يريدك «مارتن»، لا يعني بالضرورة أنّ عليك الذهاب.

صرخت في وجهه بيأس قائلة: «لكن كيف أتركه وهو عاجز في كرسيّ النقال؟ لن أتمتّع حينها بلحظة واحدة من السعادة، ولن يرتاح ضميري قط حتى آخر يوم في حياتي».

ـ لكنه لن يبقى عاجزاً. هذا ما قلته لي بنفسك.

ـ يعتقد أطباؤه أنه سيتعافى، لكنهم ليسوا واثقين من ذلك. فقد يخطئون أيضاً وربما تظهر مشاكل أخرى لم يحسبوا لها حساباً.

ـ كلُّ ذلك لا يُعدُّ سبباً كافياً يدفعك للزواج برجلٍ لا تحبّينه. لقد وهبته كلَّ تلك الأشهر، ووقفت إلى جانبه في محنته. آن الأوانُ لكي تفكّري بنفسك الآن.

نظر «كير» إلى وجهها وأدرك أن كلماته لم تحدث فيها أي وقع يُذكر، فقبض على يديها بحدّة آلمتها، وقال: «اسمعيني «سيرا»، لا تتصرفي كما لو

www.elromancia.com

أنكِ من تسبب بالحادث. ليس هذا ذنبك أو خطأكِ أنتِ».

راقب وجهها مرّة ثانية، وقد بدا لونه يتلاشى تدريجياً ليصبح بشحوب المرمر تحت ضوء القمر. وخرجت كلماتها مثقلة بالمرارة واليأس:

ـ لكن هذه هي الحقيقة... كان الذنب ذنبي أنا... أنا هي المسؤولة عن وضعه في ذلك الكرسي النقال، والتسبُّب له بأشهر من الألم والمعاناة... هل فهمت الآن لماذا لا أستطيع التخلّي عنه؟.

اختنقت الدموع في مقلتيها فانفجرت باكية كطفلة صغيرة. أخذها «كير» بين ذراعيه، يضمُّ رأسها إلى صدره، وهو يقول لها: «لا تبكي حبيبتي. لا تبكي».

راح يهدهدها ويربّت بيده على ظهرها، كان يجب أن يتنبّه لذلك. فبما أنَّها تعتبر نفسها مسؤولة عمّا حدث، من الطبيعيّ جداً أن يراها مصمِّمة على البقاء إلى جانب «روثويل» والتضحية بنفسها وبحياتها جرّاء شعورها المرير بالذنب...

حين هدأ انفعالها وجفَّت دموعها، مد يده يلتقط علبة المناديل الورقيّة وأخذ يمسح وجنتيها وعينيها كأنَّها طفلة صغيرة. ثم طبع قبلة رقيقة متفهمة على رأسها وقال لها بهدوء: «هيا الآن، لم لا تروين لي القصة كاملة؟».

أخذت نفساً عميقاً: «ليس هناك الكثير لأرويه».

ـ دعيني أسمع القصّة.

لم تجبه، بل نظرت إليه بتردُّد، فأضاف: «لم تعتقدين أنكِ من تسبب بالحادث؟».

ـ لأني كنتُ أقود السيارة.

ـ ولم كنتِ تقودين أنتِ السيّارة؟.

ـ أرادني «مارتن» أن أقود. قال إنه اشترى هذه السيارة كهدية زفاف لي، وأصر على أن أجرّب قيادتها... شعرت بانزعاج شديد، لأني كنت عازمة على فسخ خطوبتنا. لكني لم أتمكن من التفوّه بكلمة، لأن «شيرل» كانت معنا.

ـ هل ذهبت معكما؟.

ـ نعم.

تردَّد صوتُ «سيرا» كالهمس، واستولى عليها اليأس والحزن اللذان ارتسما بوضوح على قسمات وجهها. فربت «كير» على كتفها بذراعه الملتفة حولها، وقال: «تابعي حبيبتي. تابعي».

ـ لم أرد أن أقودها. فقد كنت متوترة جداً وحزينة لأني كنت أريد إعادة الخاتم له بدل الذهاب إلى «باين كوف» معه. لكن لم تسنح لي أي فرصة للتكلم مع «مارتن» على انفراد...

ـ إذن، ما الذي حدث تحديداً؟.

ـ كنّا قد خرجنا من الطريق السريعة حين فقدتُ السيطرة على السيارة عند منعطف حادّ...

أخذت نفساً عميقاً مرتجفاً، وتابعت: «انحرفنا عن الطريق واصطدمنا بشجرة. فانقلبت السيارة وانزلقت إلى أسفل المنحدر...».

ـ ماذا حدث لـ «شيرل»؟.

ـ كانت جالسة في المقعد الخلفيّ، فنجت مع بعض الجروح والكدمات، حمداً لله... وعندما استعدتُ وعيي، أتت لزيارتي في المستشفى وأخبرتني بما حدث لـ «مارتن».

ـ كم من الوقت بقيتِ فاقدة الوعي؟.

وضعت «سيرا» يدها على رأسها بتأمُّل، وأجابت: «نحو خمسة أسابيع... وحتى بعد أن استعدتُ وعيي، كنتُ مشتّتة الذهن».

ـ كيف ذلك؟.

ـ بعد أن استيقظتُ مباشرة، كنتُ متأكدة تماماً من أنّي أعدتُ الخاتم لـ «مارتن».

قطب «كير» حاجبيه وسألها: «ما الذي يجعلك واثقة من أنك لم تفعلي ذلك؟».

ـ لأنّي كنتُ لا أزال أضعه في اصبعي. كانت المستشفى قد احتفظت لي

www.elromancia.com

به.

- لكنك مع ذلك تذكرين الحادث بوضوح؟.

- لا. أنا لا أذكر الحادث على الإطلاق. أخبرتني «شيرل» بما حدث... إن آخر شيء أتذكره هو أني كنتُ أقود السيارة على الطريق السريعة...

غشي صوتها القلق واليأس وأغمضت جفنيها المبلَّلين. اقترب «كير» منها وأعاد رأسها يضعه إلى صدره وجعل يهدهدها إلى أن استعاد تنفسُها وتيرته الهادئة قبل أن تستسلم إلى النوم.

... بدأ عقل «سيرا» يعود إلى الحياة ثانيةً بهدوءٍ وتلقائية. فظلت مستلقية وعيناها مغمضتان، وهي تحاول أن تغرق مجدداً في نعمة النسيان التي يهبها النوم. لكنها بدأت تستيقظ رغماً عنها، عاجزة عن القيام بأيّ شيء يحول دون ذلك.

بالرغم من اضطراب أفكارها وتشتُّتها، إلاَّ أن جزءاً من عقلها كان يدرك تماماً أنها غير راغبة في مواجهة ما قد يأتي به هذا اليوم من أحداث...

لكن هذا الشعور لم يكن جديداً قطّ، بل كان جزءاً لا يتجزأ من حياتها منذ وقتٍ طويل.

بعد أن انجلى الضباب عن ذهنها، لاحظت أن الوقت لا يزال مبكراً بلا شكّ. فقد خيَّم الهدوء والسكون من حولها، داخل الغرفة وخارجها... لم تسمع أي حركة أو أيّاً من الأصوات المألوفة. لم تلتقط أذنها هدير مكيفات الهواء، وضجيج محركات السيارات في «فيفت آفينيو»، والصخب الذي يعلو في سماء «مانهاتن» وهي تستيقظ وتتهيأ ليوم جديد.

مرّت بضع لحظاتٍ قبل أن تتذكر أنها ليست في «مانهاتن». فقد جاءوا إلى «باين كوف» للاحتفال بعيد ميلاد «مارتن». كان يقيم حفلة...

لقد أقام حفلة... ثم ظهر «كير»... وأخذها إلى منزل ريفيّ قديم... وأعدَّ لها العشاء، و... تحدَّثا طويلاً!.

لكنَّه ليس سوى حلم بلا شكّ. إلاَّ أنَّ الذكرى كانت حيةً جداً وحقيقية

بحيث تكاد لا تكون حلماً...

انتفضت وهي تجلس على السرير، مما جعل رأسها يدور بقوة. كانت أشعة شمس النهار ساطعةً، وحمدت الله لأنها لم تجد «كير» إلى جانبها. لا بد أنه أمضى الليل في غرفة الجلوس في الطابق السفلي. ربما هو الآن في المطبخ يعدُّ لها الفطور.

رأت ثوبها المسائي الذي أتت به مُلقى بعناية على الأريكة إلى جانب السرير.

بالرغم من ارتياحها لتصرُّف «كير» الشهم، إلاَّ أن شعوراً مزعجاً بالامتعاض اجتاحها وهي تفكر غاضبةً بالطريقة التي أتى بها «كير» إلى هنا، لكنها لا تستطيع أن تلقي اللوم كلّه عليه. فلو أنها رفضت التنزه معه على الشاطىء ليلة أمس، لما تمكن من «اختطافها» بهذه السهولة.

لم يكسب المعركة في الواقع، بل إن عجزها عن مقاومة مشاعرها نحوه هو الذي جعلها تخسر أمامه.

لكن فات أوان الندم... ماذا عسى «كير» يفعل الآن. هل سيعيدها إلى «باين كوف» مباشرةً؟.

أكَّد لها «كير» أن أحداً لن يلاحظ غيابها قبل فترة الظهيرة... فإن كان مزاجه اللطيف الذي غلب عليه أمام دموعها، لا يزال مسيطراً عليه، لربما استطاعت العودة قبل أن يلاحظ «مارتن» غيابها...

نظرت في ساعتها وذُهلت حين علمت أنها تقارب الحادية عشرة والنصف. لا، لا يُعقل أن يكون الوقت متأخراً إلى هذا الحدّ. لكنَّ الستائر لم تكن مسدلة، واستطاعت أن ترى الشمس وقد ارتفعت عالياً في كبد السماء الزرقاء الصافية. دفعت أغطية السرير بعيداً عنها، فلاحظت فجأةً يدها اليسرى وتذكرت أن «كير» قد نزع خاتمها. مدَّت ذراعها نحو المنضدة إلى جانب السرير حيث رأت الخاتم يتلألأ تحت أشعة الشمس المتسللة عبر النافذة. دسَّته في اصبعها دونما تفكير، بل بواقعية اعتادت تقبُّلها.

ثم تنبهت لضرورة التحرك سريعاً إذا ما أرادت العودة إلى «باين كوف»

في الوقت المناسب. فأسرعت إلى الحمام واغتسلت ونظفت أسنانها بأسرع ما أمكنها، قبل أن تسرّح شعرها بحركة واحدة مضطربة، لتتركه ينسدل كالحرير الأسود على كتفيها.

بدّلت ملابسها واستعادت سلسلتها الفضية التي ارتدتها تحت قميصها، ثم هرولت خارج الغرفة وهبطت السلالم بسرعة البرق.

دخلت المطبخ، فوجدت إبريق القهوة لا يزال ساخناً، لكنها لم تجد أي أثر لـ «كير». قامت بجولةٍ في المكان، وتأكدت أن المنزل كان خالياً بالفعل. لكنها مرت بإحدى غرف النوم في الطابق السفلي فوجدتها تحتوي على منضدة كبيرةٍ فقط، أُلقيت عليها ثياب «كير» التي كان يرتديها في الليلة السابقة.

كان الطقس جميلاً، ولعله خرج إلى الشرفة أو الحديقة؟ اتجهت نحو قطة جالسةً تتمتع بدفء حرارة الشمس، وقد بدت معتادة على المكان. ثم وقفت وتمطت قبل أن تقترب من «سيرا» تتودّد إليها.

ـ آه، مرحباً.

انحنت «سيرا» تداعب القطّة، وتسألها: «لمن أنتِ أيتها الصغيرة؟ من المؤكد أنك لا تقيمين هنا».

توقفت عن مداعبتها وتركتها حيث هي لتسير حول الشرفة بسرعة. وما إن خطت إلى الأمام حتى لحقت بها القطّة. بلغت الجزء الأمامي من المنزل، ولم تجد كذلك أي أثر لـ «كير». وذهلت عندما لم تجد سيارته في المكان الذي ركنها فيه ليلاً.

لم تسمع محركها وهي تبتعد عن المنزل، لكنها تذكرت أن غرفة النوم التي أمضت الليل فيها تقع في الجزء الخلفي من المنزل. فشعرت بالأسى والإحباط... والوحدة، وتساءلت أين عساه يكون؟ وما الذي حدا به للرحيل فجأة من دون أن يوقظها؟.

تساءلت بقلق عن الوقت الذي سيستغرقه غيابه. فإن لم يعد قريباً، ستفقد أي فرصةٍ للرجوع إلى «باين كوف» قبل أن يتم اكتشاف غيابها.

ما إن عبرت الفكرة في ذهنها، حتى سمعت صوت سيارة تقترب من

المنزل. وبعد ثوانٍ قليلة، رأت سيارة المرسيدس تظهر من خلف مجموعة الأشجار أمام المنزل، وتتقدم ببطء نحوها. لاحظت «سيرا» أنها مغطاة بطبقة سميكة من الغبار، حين فتح «كير» الباب وخرج منها.

كان يرتدي بنطالاً أنيقاً وبسيطاً، وقميصاً أزرق مكشوف الياقة، فبدا فاتناً ذا جاذبية طاغية.

لفت مظهره «سيرا» فأحست بالدم يتدفق بعنف في عروقها. وبالرغم من كلّ الأسئلة التي كانت تحتشد في رأسها، وجدت نفسها لا تدري ما تقول، فآثرت الصمت لئلا يكتشف أمرها.

ـ صباح الخير.

تكلم بلطفٍ، لكن كما يتكلم مع أيّ غريب يلتقي به صدفة. وحدجها بنظرة من عينيه الزرقاوين الداكنتين، نظرة لم تر فيها «سيرا» أيَّ شيء خاص. لم تكن تعرف ماذا تتوقع منه، لكنها لم تنتظر حتماً أن ترى هذه اللامبالاة الباردة.

ابتعدت القطة عنها وذهبت لملاقاته، فأضاف: «أرى أنك تصادقتِ مع «بوسي»».

تمالكت نفسها بصعوبة، وسألته: «إنّها لك إذن؟».

ـ لا. لقد أتت للزيارة فقط. إنها تعيش في مزرعة «مانتي».

عاد إلى السيارة وأخرج منها كيساً ورقياً بني اللون. وقال: «والآن، ما رأيك في تناول الغداء؟».

أخذت نفساً عميقاً وقالت دون مقدمات: «ليس لديّ الوقت للغداء. يجب أن أعود».

سحب «كير» المفاتيح من السيارة بحذر واضح ووضعها في جيب بنطاله قائلاً: «سيتم كلُّ شيء في الوقت المناسب. لكني أعتقد أولاً أن كلينا بحاجة لتناول الطعام...».

اتّجه نحو المطبخ وهو يتأبّط الكيس تحت ذراعه و«بوسي» تعدو خلفه بسرعة. بدا لـ «سيرا» أن الأمور لن تكون بالسهولة التي تصوّرتها.

فأسرعت تلحق به وهي تكرر باضطراب وقلق: «لكني إن لم أعد قريباً، فمن المؤكد أن «مارتن» سيتنبّه لغيابي، وسيتسبب ذلك بمشاكل لا نهاية لها».

ـ لا داعي لأن تقلقي هكذا. فإن «كاثلين» ستحسن التصرف بسرعة وستجد طريقة لإلهائه.

وضع الكيس الورقيّ على طاولة المطبخ وراح يفرغ محتوياته بتمهُّل... رغيف خبز طازج، علبة كريما، علبة بيض، بعض الليمون و...

فانفجرت «سيرا» غاضبة: «ماذا لو علم من الخادمة أنّي لم أنم في سريري؟ إنّه يعرف أني لا أملك المال وليس لديّ مكان أذهب إليه... ماذا لو اتصل بالشرطة؟».

قال لها «كير» بحزم وهدوء: «قلتُ لا داعي للقلق. سأهتم بمعالجة أي مشكلة قد تطرأ». وسحب كرسياً خشبياً، وأضاف: «والآن، لم لا تجلسين وتحاولين الاسترخاء؟».

أدركت عقم محاولاتها، فجلست بامتعاض..

***

بدا «كير» كأنه يملك كل الوقت وهو يسكب ببطء وهدوءٍ تام كوبين من عصير الفاكهة الطازج قدّم أحدهما لـ «سيرا».

رغم أنّه لم يقل شيئاً، إلا أن «سيرا» عرفت أنه لاحظ الخاتم في اصبعها.. أشاحت ببصرها بعيداً عن نظراته المحدقة وتمالكت نفسها قائلة: «شكراً لك».

وضع «كير» قطعتين من الخبز في المحمصة الكهربائية، ورفع عن النار وعاءً مليئاً بالبيض. ومع أن الفطور كان شهياً ولذيذاً، إلاّ أن «سيرا» شعرت بتقلّص في معدتها وانقباضات مؤلمة جرّاء توتُّرها واضطرابها، فاضطرّت لابتلاع طعامها عنوةً.

أكملا فطورهما بصمت مطبق، وعندما انهيا طعامهما سكب «كير» القهوة. ابتلعت «سيرا» قهوتها دفعة واحدة، بينما جعل «كير» يرتشف فنجانه بتأنٍّ مغيظٍ كادت معه أعصابها تنفجر.

أخيراً، لم تعد قادرة على الجلوس بهدوءٍ أكثر من ذلك، ولم تتمالك نفسها فانتفضت واقفةً وهي تقول: «هل أنظف الطاولة؟».

ـ لا داعي لذلك. فإن تركت مفتاح المنزل مع السيّدة «مانتي»، ستأتي للاهتمام بهذا الأمر. هي تقوم عادة بتوضيب السرير وملء الثلاّجة، والاهتمام بالمكان بشكل عام أثناء غيابي، كما كانت تفعل مع المالك السابق.

نظر إلى ساعته وانتصب واقفاً، ثم قال: «سأحضر الحقيبة، ثم نتطلق إن كنتِ مستعدّة؟».

صرّت «سيرا» بأسنانها وأجابته بهدوء مصطنع: «نعم، أنا مستعدة».

صعد «كير» إلى مقعده خلف المقود. وبعد قليل، كانا في طريق عودتهما. كانت يداه مستلقيتين بهدوء واسترخاء على المقود، مقطباً حاجبيه الداكنين كما لو أنه غارق في التفكير، واتجه نحو الساحل بصمتٍ مطبق.

عندما يصلان إلى «باين كوف»، هل سيكتفي «كير» بإنزالها والمضيّ في طريقه؟ أرادت أن تسأله، أن تتوسّل إليه ليفعل ذلك تماماً. لكنها خافت من التطرق إلى هذا الموضوع، فعضّت على شفتها والتزمت الصمت.

عندما اقتربا من الساحل، أصبح الهواء كثيفاً وثقيلاً، وعابقاً برائحة أشجار الصنوبر والزهور الزكية المحمَّلة برائحة مياه البحر المالحة.

استجمعت «سيرا» قواها وبدأت تُعِدّ نفسها، فلا بدَّ أنهما يكادان يصلان. لكن الطريق التي كانا يسيران عليها بدت لها غير مألوفة، فشعرت بانزعاج لم تستطع تفسيره، وسألت «كير»: «هل أنت متأكد من أن هذه الطريق تؤدي إلى «باين كوف»؟».

ـ لسنا ذاهبين إلى «باين كوف».

حبست «سيرا» أنفاسها وأخذ قلبها ينتفض وتسارعت نبضاته بشكل عنيف. فأضافت: «لكنك... لكنك وعدتني بإعادتي إلى هناك».

رفع «كير» حاجبه: «لا أذكر أني وعدتك بأيّ شيء مماثل. فإن كنتُ أذكر جيداً، قلتُ «سيتمُّ كلّ شيء في الوقت المناسب». ولم أعدك بسوى

شيء واحد، وهو أني سأعالج أي مشكلة قد تطرأ».

صاحت به: «لكننا قد لا نواجه أي مشكلة إذا ما أخذتني مباشرة إلى هناك».

- هل تتصوَّرين حقاً أنني، بعد أن قمتُ باختطافك، سأوصلك إلى هناك ببساطة وأمضي في سبيلي؟.

- لكن، عليك أن تعرف أنّ ذلك هو لخير الجميع!.

- أعرف أنَّكِ أنتِ من يظنُّ ذلك، لكني لا أوافقكِ الرأي.

حلَّ الصمت بينما كانت «سيرا» تجهد لتمالك نفسها. وعندما تأكدت من ثبات صوتها، سألته بتلعثم: «إذا كنا لسنا ذاهبين إلى «باين كوف»، فإلى أين نحن ذاهبان؟».

- إلى كوخ فيدلر.

- إلى كوخ فيدلر؟ لكن «شيرل» و «روبرتو» يقيمان فيه... لم نحن ذاهبان إلى هناك؟.

- لأنَّ «شيرل» طلبت منّي أن آخذك إلى هناك.

- أنا لا أفهم... هل طلبت منك ذلك في الحفلة ليلة أمس؟.

- لا. اتصلتُ بها هذا الصباح لكي أراها. أرادت أن أحضرك معي حينها، لكنَّ «روبرتو» ذكَّرها بأنهما مدعوّان على الغداء في منزل جيرانهما. على أي حال، لا بد أنهما قد عادا إلى البيت الآن.

التقطت «سيرا» النقطة التي أثارت اهتمامها أكثر من أيِّ شيء آخر، فتمتمت قائلة: «إنها إذن تعرف بأمر...».

- بأمر اختطافي لكِ؟ نعم، لقد أخبرتها بذلك.

تأوَّهت «سيرا». لقد وضع «كير» الزيت على النار. «شيرل» تحب أخاها وستكره أن تراه يعامل بهذا الشكل الدنيء والخسيس.

- آه. ما كان عليك أن تخبرها بأيِّ شيء، فهي لن تغفر قطّ لي....

- قد يكون العكس هو الصحيح.

تساءلت «سيرا» عما يعنيه «كير» من ملاحظته الساخرة تلك. ثمّ

انعطف بالسيارة نحو ممرّ أحد المنازل الريفية المحاذية للبحر تماماً والتي يعشقها أثرياء نيويورك.

ما إن التفَّت سيّارة المرسيدس حول الساحة الأمامية للكوخ، حتى تركت «شيرل» مقعدها على الشرفة وأسرعت باتجاههما. بدا وجهها متعباً، وقد تلاشت عن ملامحها السعادة التي عرفتها في الليلة السابقة. كانت عيناها الزرقاوان مضطربتينْ وهي تنظر إلى «كير» قائلة: «هل...؟» هزَّ لها «كير» رأسه وقال: «فضَّلت أن يصدر ذلك منكِ أنتِ».

غالباً ما كانت المرأتان تتعانقان عند لقائهما، لكنهما شعرتا هذه المرّة بالحرج، فلم تبادر أيّ واحدة منهما باتجاه الأخرى.

بعد فترة قصيرة من التردُّد المعبرّ، سألتهما «شيرل»: «أتفضّلان الجلوس في الشرفة أم داخل المنزل؟».

استجمعت «سيرا» رباطة جأشها وأجابت: «أينما تفضلان».

- إذن، لنجلس في الشرفة.

تقدَّمتهما «شير» نحو الشرفة حيث أشارت لهما ليجلسا على كُرسيَّيْن تعلوهما مظلَّتان صغيرتان. انتظر «كير» إلى أن جلست المرأتان، ثم جلس إلى جانب «سيرا».

فقالت «شيرل»: «تركتُ «روبرتو» عند آل «سيمبسون». كان الرجال يتناولون المثلَّجات ويتناقشون في أخبار الرياضة وبما أنه يشعر بالاستياء الشديد من القصة كلِّها، فكرتُ في أن الأمور ستكون أسهل بكثير من دونه».

أحسَّت «سيرا» باضطراب في معدتها، فقالت بتلعثم: «أنا آسفة... أنا أحبّ «روبرتو» كثيراً، ويؤلمني أنْ أعرف أنكما غاضبان منّي...».

قاطعتها «شيرل» بحزم: «إن كنتِ تتكلّمين عن ليلة أمس، فلا داعي للأسف... سبق أن شرح لي «كير» أنَّكِ لم تملكي الخيار في ما حدث... كما أن «روبرتو» ليس غاضباً منكِ أنتِ، بل منّي أنا. اسمعي، لعل من الأفضل لنا أن أشرح لكِ القصة من البداية...

. . . لقد سلبتِ عقل «مارتن» منذ اللحظة التي وقع فيها نظره عليكِ. لم أعهده من قبل متيّماً بحبّ امرأة بهذا الشكل الجنوني. ففي الحفلة التي أقامتها شركة «أنغلو ـ أميركان»، تنبّهتُ للطريقة التي كان يحدجكِ بها. وأشار لي بنظرة خاطفة. . . ففهمت ما يرمي إليه، وكأيّ أختٍ محبّة، أبعدتُ «كير» عمداً، لأعطيه الفرصة ليبقى معك على انفراد. .

. . . ولأكن صريحةً وصادقةً معكِ، كانت لي في ذلك الوقت منفعة شخصيّة من الأمر. لكنّي، سرعان ما اكتشفتُ أنك كنتِ، بالنسبة إلى «كير»، المرأة الوحيدة في العالم كلّه. بعد ذلك، عندما أقنعني «روبرتو» بالبقاء تلك الليلة. . . حسناً، لقد أعجب أحدنا بالآخر على الفور. . . ولستُ بحاجة لأن أخبركِ بالباقي. . .

. . . لكن، لنعد إلى صلب الموضوع. . . في البداية، ظننتكِ مغرمةً بـ «كير» واعتقدتُ أنّ «مارتن» يضيّع وقته سُدى. ثم، بدا أنّكِ تخليت عن كير، فخطر لي أنني قد أكون مخطئة. . .

. . . إن «مارتن» بالطبع رجل وسيم وفاتن جداً. وهو، بالنسبة إلى معظم النساء، يتمتع بكلّ ما تتمنّاه المرأة، لكنّي، رغم ذلك، لم أقتنع فعلاً بأنك تحبينه. وتوصلت إلى الخلاصة المنطقية الوحيدة، وهي أن ماله هو الذي أغراكِ وجذبكِ».

رأت معالم الأسى على وجه «سيرا»، فسارعت تقول: «أنا آسفة، لكني أحاول التزام الصدق والصراحة. على أيّ حال، قررتُ ألاّ أتدخل مهما يكن الأمر. فلم يكن «مارتن» غبيّاً، وإن كان لا يزال راغباً بالزواج بك، فالأمر يعود له في النهاية. . .

. . . وحين اقترب موعدُ الزفاف، لاحظتُ أنك تصبحين أشدّ حزناً يوماً بعد يوم. عند ذلك، حذرت «مارتن». لكنه كان متيماً بكِ إلى حد بعيد، وكل ما كان يشغل فكره هو أن يضع خاتم الزوج في اصبعك قبل أن تغيري رأيكِ. . . وظل يردّد لي: «سيكون كلّ شيء على ما يرام حين نتزوج».

قاطعتها «سيرا» بنبرةٍ يائسة: «لا أعرف لماذا تخبريني بكل هذا الآن. فلم يعد لهذا أي صلة بالمشكلة الحالية، كما لم يعد مناسباً ومفيداً أيضاً».

ـ قد لا يكون هذا الجزء من القصّة مناسباً الآن، لكن الباقي هو كذلك من دون ريب. كان يجب أن أخبرك بذلك من قبل. فقد لازمني الشعور بالذنب منذ مدّة طويلة. . .

ـ الشعور بالذنب؟ . . . ولم تشعرين بالذنب بحقّ السماء؟.

أجابتها «شيرل» بنوع من المرح الجافّ: «اسمعي ما سأقوله، وسرعان ما ستعرفين. . . أنتِ تذكرين كيف أن «مارتن» أرغمكِ يوم وقوع الحادث على قيادة السيّارة؟».

ـ إنّه لم «يرغمني» حقاً على القيادة.

ـ حسناً، لنقل إنه أقنعكِ بذلك. لاحظت حينها أنكِ ما كنتِ راغبة في القيادة. وكان الإرهاق والتوتر باديين بوضوح على ملامحكِ. لكنها كانت سيارة صغيرة جميلة، فافترض «مارتن» أنه سيسرُّك الحصول على هدية زفاف كهذه، فقام عمداً بإعطاء السائق إجازةً في عطلة نهاية ذلك الأسبوع. . .

قطعتْ «شيرل» كلامها وتنهدت عميقاً. ثم تابعت قائلة: «بعد الحادث، كل ما كنتِ تذكرينه أنك كنت تقودين السيارة على الطريق السريعة. هل أفهم أنك لم تتذكري شيئاً بعد ذلك؟».

ـ لا.

ـ حسناً، عندما أخبرتك بما حدث، قمتُ بإخفاء عدة أمور، لأجل «مارتن».

أخذت نفساً عميقاً مرتجفاً، ممّا أقلق «سيرا» التي سارعت تقول لها: «هل أنتِ متأكّدة من أنك تودّين التحدث عن الأمر؟ ليس الوقت ملائماً لكي تزعجي نفسكِ».

ـ يجب أن أُريح ضميري.

وربّتت على بطنها الذي لا يزال صغيراً، وأضافت: «سينمو «روبرتو» الصغير بشكل أفضل إذا فعلتُ ذلك».

- حسناً، إن كنت متأكدة...

- كل التأكيد.

رمقت «كير» بنظرة خاطفة، فرأت وجهه الداكن خالياً من أيّ تعبير وهو يستمع إليهما بصمتٍ تامّ. وتابعت تقول: «بعد أن خرجنا من الطريق السريعة، بدأ «مارتن» بالحديث عن شهر العسل الذي خطط له. واقترح أن تُطيلاه لبضعة أسابيع لتذهبا إلى «سيدني» بعد أن تغادرا «هاواي»...

... كان يقول: «بإمكاننا أن نمضي وقتاً أطول في استراليا إن أردتِ. ونرى...»، حين انفجرتِ غاضبة وأنتِ تقولين: «لن ينفع ذلك، «مارتن»، لا أستطيع الزواج بك. أنا آسفة، كان الأمر غلطة فظيعة. لقد حاولت أكثر من مرّة أن أخبرك بهذا، لكنك أصريت على أن ما أعانيه مجرّد توتُّر يسبق الزفاف عادةً، وأنه ليس...».

كانت «سيرا» جالسةً تستمع بانتباه شديد الانفعال، ويداها مشبوكتان بقوّةٍ في حجرها. فواصلت «شيرل» الكلام: «أعتقد أنه عرف هذه المرّة أنك تعنين ما تقولين فثار وانفعل بحدّة. كان المشهد غريباً ومؤلماً بالنسبة إليّ. ما كان يجب أن أكون معكما... وكما لو أنه تنبّه لوجودي فجأة، صاح بكِ قائلاً: «أوقفي السيارة. لا يمكننا التحدّث بهذه الطريقة». فخرجت عن الطريق وأوقفتِ السيارة تحت مجموعة من الأشجار. وخرجتما معاً من السيارة حتى أنه كاد يدفعكِ دفعاً لتبتعدا إلى مسافةٍ قريبة... ورغم أنيّ لم أسمع ما تقولان، إلاّ أني عرفتُ أنكما تتجادلان. كنتِ تبكين، بينما بدا على «مارتن» أنه يستشيط غيظاً...

... رأيتكِ تنزعين خاتمك وتحاولين إعادته إليه، لكنه رفض أن يأخذه. وفي النهاية، رميتِ به أرضاً عند قدميه ومشيتِ مبتعدة عنه...

... بدا وجهه شاحباً وهو يلتقطه ويدسُّه في جيب السترة الكتانيّة التي كان يرتديها...».

همست «سيرا» قائلة: «لقد أعدتُ له الخاتم إذن».

لم تتوقّف «شيرل» لتجيبها، بل تابعت بسرعة: «كنتِ قد وصلتِ إلى

السيارة لتوّك، حين لحق بكِ وهو مندفع بغضبٍ عنيف، ودفع بكِ جانباً ليجلس خلف المقود بنفسه...

... تمكنتِ بالكاد من أن تجلسي على المقعد إلى جانبه وتغلقي الباب، قبل أن ينطلق بالسيارة بعنف. لم يكن يفكر بشكلٍ سوي وقد جُنّ جنونه، وكان يجب ألا يقود السيارة في مثل حاله... وقُبيل أن تتسنّى لي الفرصة للتكلّم معه بتعقّل وإعادته إلى رشده، بلغنا المنعطف الحادّ عند وادي «دانتون». كان يسير بسرعة فائقة، فلم يستطع الالتفاف في الوقت المناسب. اصطدمنا بشجرة على جانب الطريق بقوّة بالغة وانقلبت بنا السيارة قبل أن تتدحرج إلى أسفل المنحدر حتى السهل....

... استقرّت السيارة في وضع مقلوب، وكان جزءها الأمامي محطماً تماماً، أما الجزء الخلفي، فلم يكن بهذا السوء. وسمعت ضجيجاً غير عادي: صرير الحديد وتحطم الزجاج وتصاعد البخار... ثم بدأت أشم رائحة الوقود فانتابني الخوف من أن تشتعل السيارة ونحن في داخلها. ورغم أني كنتُ أترنح من الإصابة، إلا أنني تمكنت من فتح حزام الأمان. لكن الأبواب كانت عالقة من أثر الاصطدام، فلم أنجح في فتح أحدها لأخرج من السيارة...

... تملكتني لحظات من الذعر، قبل أن أتمالك نفسي، ووجدت هاتفي الخلويّ لا يزال يعمل، حمداً لله، فاتصلت بخدمة الطوارىء... ثم حاولت أن أساعدكم أنتِ و «مارتن». كنتما مضرجين بالدماء. فاعتقدتُ لبرهة أنكما فارقتما الحياة، لكني سرعان ما تحسستُ نبضكِ وسمعتك تتنفسين بصعوبة...

... لم يفقد «مارتن» الوعي، لكنه كان عالقاً، عاجزاً عن القيام بأي حركة. فسألته إن كان بإمكاني القيام بأي شيء لمساعدته. وإذا به يقول بصوت أجشّ: «إبحثي في جيبي... الخاتم... أعيديه إلى إصبع «سيرا». لا يمكنها أن تتركني... لن أدعها تفعل ذلك»... لم أكن واثقة من أنه يعي ما يقول، لكن، عندما لم أمتثل لطلبه على الفور، أخذ يبكي ويتوسل

إليّ: «آه، أرجوكِ أختي، أرجوكِ... افعلي هذا لأجلي».

توقفت «شيرل» عن الكلام بشكل مفاجىء وقد اغرورقت عيناها بالدموع التي كادت تنهمر بغزارة. لكنها تمالكت نفسها وقالت: «لم يكن قد ناداني بأختي منذ سنوات».

اختنقت «سيرا» بالدموع بدورها، فمدت يدها لا شعورياً لتمسك يد المرأة الأخرى وتشدَّ عليها. مسحت «شيرل» دموعها وقالت: «بحق السماء لا تكوني عطوفة معي. أنا لا أستحق ذلك...».

ثم، تابعت قائلة: «تمكنت من العثور على الخاتم ووضعه في إصبعك. في هذه الأثناء اجتاحت «مارتن» موجة عنيفة من الألم، وراح يتصبب العرق على وجهه وهو يئن ويتلوى بشكل انفطر منه قلبي... ثم همس قائلاً لي: «وهناك شيء آخر؛ عندما تصل الشرطة إلى هنا، لا تخبريهم بأني كنتُ أقود السيارة». كانت قد مضت ستة أشهر فقط منذ أن نجا بالكاد من حكم قضائي بسبب قيادته المتهورة. لهذا السبب، حرص على التنقل بسيارة الليموزين بدل أن يقود بنفسه السيارة، رغم أنه كان يفضل ذلك... فقلت له: «لكنهم سيكتشفون ذلك. «سيرا» ستخبرهم بالحقيقة ما إن تستعيد وعيها». فأصر «مارتن» قائلاً: «لن تفعل إن طلبتِ منها أنتِ ذلك. عديني بأن تطلبي منها ألاّ تفعل. لن تتحقق الشرطة من الأمر، فنحن لم نؤذِ شخصاً آخر غريباً»...

... لذا، وعدته بما أراد، لكني في الواقع لم أكن بحاجة لأن أطلب منك شيئاً. فقد استيقظتِ وأنتِ مقتنعةً تماماً بأنك أنت التي كنت تقودين السيارة عند وقوع الحادث...

... أنا آسفة، أنا آسفة على كل شيء. كان يجب أن أخبرك بالحقيقة... لكن «مارتن» كان متعلقاً ومتمسكاً بكِ إلى حدّ جنوني، فلم أستطع أن أخذله وأتخلى عنه...

... بالرغم من كل ما كان يبدو عليك من حزن وأسى، إلا أنك كنتِ تتكيفين مع الوضع على ما يبدو... أعتقد أني كنتُ أعلم في قرارة نفسي أن

ما يبقيك إلى جانبه هو شعور مرير بالذنب. أنا آسفة».

ثم، مرة أخرى، اغرورقت عيناها بالدموع.

كانت «سيرا» جالسة على كرسيها دون حراك كأنها تمثال حجري، تراقب وجه المرأة الأخرى بحيرة واضطراب، لكنها سارعت تقول: «أرجوكِ، لا تزعجي نفسكِ... لأجل الطفل الذي تحملينه، إن لم يكن لأجل شيء آخر».

بذلت «شيرل» جهداً كبيراً لتمالكِ نفسها، وقالت: «تمنيتُ فقط لو أني أخبرتك قبل الآن».

ـ لا أفهم لماذا أخبرتني الآن!.

ـ أردتُ إخبارك بالحقيقة منذ مدة طويلة. كنت سعيدةً إلى حد أني لم أحتمل رؤية أي أحد آخر حزيناً. لكن السبب في امتناعي عن ذلك كان «مارتن» دائماً، فكانت الشجاعة تخونني في كل مرة... ثم أتى «كير» هذا الصباح وأخبرني بما فعله وهو مصمم على عدم السماح لكِ بالعودة إلى «مارتن» حتى يعرف أن الأغلال نزعت من يديكِ...

... لقد فاجأني، فالتزمت الصمت بعنادٍ في بادىء الأمر، لكنه ما لبث أن أوضح لي الشكوك التي كانت تساوره حول هذه القصة، وأصرَّ على معرفة الحقيقة كاملةً... بدا رائعاً في تصميمه، فلم أستطع الاستمرار في التزام الصمت... إني جبانة حقاً، فأنا خائفة من ردة فعل «مارتن» عندما يكتشف أنني خذلته...

طمأنتها «سيرا» بثقة تامّة: «في ما يتعلق بي، لن يعرف أنكِ أطلعتني على شيء قط».

ـ شكراً لكِ.

ساد الصمت لفترة وجيزةٍ قبل أن تتمالك نفسها وتكبح رغبتها العارمة بالبكاء، ثم سألت: «ماذا ستفعلين الآن؟ أعني بعدما عرفتِ أنكِ لم تتسببي بذلك الحادث، وأنك لست مضطرة للشعور بالذنب».

لم يتسنَّ لـ «سيرا» الوقت بعد لكي تستوعب جيداً ما سمعته، وكانت

لا تزال تشعر بالدوار وعدم الاتزان، فقالت ببطء: «لا أعرف. أنا ما زلتُ أشعر بالذنب بطريقة ما. فلو أني لم أقل شيئاً عن فسخ خطوبتنا إلى أن نصل إلى «باين كوف»، ما كان الحادث ليقع قط».

قطب «كير» حاجبيه، قائلاً: «إن سلمنا جدلاً أن كلاً منا عليه تحمل مسؤولية أعماله، فماذا عن «روثويل»؟ أنتِ لم تصدمي السيارة بتلك الشجرة...».

قاطعته «شيرل» موافقة: «كير» على حق تماماً. ما كان الحادث ليقع لو أن «مارتن» تمالك نفسه بعض الشيء. ومع ذلك، إنها طبيعة «مارتن» المعروفة... من الجيد أن «كاثلين» تعرف تماماً كيف تتعامل معه... إنها تحبه بالطبع، مما يساعدها إلى حد بعيد. كما أني قد أقسم بأنه بدأ يتعلق بها أكثر فأكثر. ففي الليلة السابقة كانت الغيرة تتملكه بجنونٍ كلما نظرت «كاثلين» إلى رجلٍ آخر... لو لم تكوني أنتِ هناك لـ... لتعقيد الأمور... إذا صح التعبير، أعتقد أن هناك فرصة كبيرة للانسجام بينهما».

ثم قالت لـ «كير»: «ما هو رأيك؟».

أجاب «كير» ببطء كأنه يزن كلماته: «أوافقكِ الرأي في أن «كاثلين» تحبه. وبالرغم من أنها كانت تشعر بالأسى لحال «سيرا»، فإن المساعدة التي قدمتها لي، لم تكن من دون هدف أو سبب. أما بالنسبة إلى «مارتن»، فالهوس لا يدوم مدى الحياة، كما أن فكرة زواج الرجل من ممرضته ليست غريبة...».

ما إن أنهى كلامه، حتى عبر «روبرتو» المرجة الخضراء أمام المنزل واتجه نحوهم، ثم قال: «هل تأخرتُ بما يكفي؟».

أجابه «كير»: «إن توقيتك ممتاز».

تقدم «روبرتو» من زوجته وانحنى يقبلها بلطفٍ قائلاً: «سامحيني إن كنت غضبت منك حبيبتي». ابتسم كل منهما للآخر وقد شعَّ وجهاهما ببريق الحب الدافئ.

شعرت «سيرا» بقلبها يعتصر وخطر لها أنها قد تبيع روحها مقابل أن

ينظر «كير» إليها بهذه الطريقة.

التفت «روبرتو» نحو «سيرا» قائلاً: «عزيزتي، آمل أنك لا تشعرين بمرارة شديدة بعد أن عرفت الحقيقة؟».

ـ لا أشعر بالمرارة على الإطلاق.

كان ذلك صحيحاً. فكل ما كانت «سيرا» تشعر به في تلك اللحظة، كان إحساساً جديداً من الراحة التي لم تعهدها من قبل. وأرادت أن تزيل العبء عن صدر «شيرل» وتريح ذهنها، فأضافت: «لو أني كنت محظوظة بما يكفي لأحصل على أخٍ لي، لكنت تصرفت بالطريقة نفسها».

ابتسم «روبرتو» بدفءٍ وقال: «هل تشربون الشاي أم تفضلون القهوة؟».

ألقى «كير» نظرة متفحصة على وجه «سيرا»، وأجاب: «لا، شكراً. علينا أن نذهب». وقف على قدميه ومد لها يده النحيلة الجميلة وساعدها لتقف بدورها.

نهضت «شيرل» من كرسيها أيضاً، وتعانقت المرأتان دون تردد. ثم قبل «روبرتو» يد «سيرا» وربت على كتف «كير»، ومشوا جميعاً نحو السيارة.

لاحظ «كير» أن ركبتي «سيرا» تكادان لا تحملانها، فوضع يده تحت مرفقها؛ ومع ذلك لم تشعر بالراحة إلاّ بعد أن وصلت إلى السيارة وارتمت على المقعد الأمامي بجانب السائق.

بعد برهة، كانا يبتعدان بالسيارة على الممرّ الضيق، بينما وقف «روبرتو» و «شيرل» يداً بيد، يلوّحان لهما. عندما وصلا إلى الطريق الرئيسة، سألها «كير» بنبرة طبيعية: «قبل أن تتكلمي مع «روثويل»، هل ترغبين بالذهاب إلى مكان هادىء لساعة أو اثنتين ريثما تستجمعين أفكارك وتعيدين النظر بالأمور؟».

لكنها كانت قد اتخذت قرارها، فقالت دون تردُّد: «لا، لستُ بحاجة لمزيد من الوقت للتفكير. أرغب بالذهاب مباشرة إلى «باين كوف»».

رأت أصابعه النحيلة تنقبض على المقود، لكنه لم يسألها ماذا قرّرت أن تفعل عندما تصل إلى هناك. كلّ ما قاله: «حسناً، إن كنتِ متأكّدة».

ـ أنا متأكدة.

شعرت بالحاجة لمواجهة الأمر والانتهاء منه وحسمه للمرّة الأخيرة، رغم أن التفكير في ما ينتظرها هناك، جعل أعصابها تنتفض ومعدتها تعتصر بشكلٍ مرضيّ.

عندما وصلا إلى «باين كوف»، ازدادت حالتها سوءاً. دخل «كير» بالسيارة إلى المدخل الرئيسي من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة وتوقف أمام المنزل. وكان واضحاً أنه لم يكن عازماً على إخفاء وجوده هنا.

لم يروا أحداً هناك، لكن «سيرا» كانت واثقة من أن الجميع في مثل هذا اليوم الجميل سيكونون مجتمعين حول بركة السباحة. وسيكون غريباً أن تجد «مارتن» هناك. فلا بد أن يكون قد انفجر غاضباً بعد مرور كل ذلك الوقت على غيابها، بالرغم من جهود «كاثلين» ومحاولاتها الحثيثة لتهدئته. كما كانت متأكدة أيضاً من أنه لن يتردد في حالة الغضب والسخط في قذفها بعبارات مهينة جارحة، من دون الاكتراث بالحاضرين..

نظر «كير» إلى وجهها الشاحب المتوتر وقال: «هل ترغبين بأن أتكلم معه أنا؟» هزّت رأسها رافضة اقتراحه. فمهما تكن خائفة من هذا الموقف، إلاّ أنه أمر عليها أن تقوم به بنفسها.

ثم سألها «كير» فجأة: «ماذا تنوين أن تفعلي؟».

ساهم تدخله في الموضوع وتصميمه للوصول إلى الحقيقة، في نزع الأغلال من يديها وفتح باب السجن على مصراعيه. يبدو أنّه الآن سيكتفي بترك الأمر لها لتختار ما إذا كانت ستبقى في هذا السجن أم ستغادره. لكنها سرعان ما علمت أن ذلك لم يكن صحيحاً، بل كانت تعرف بطريقة ما أنه لن يهدأ أو يرتاح قبل أن يراها حرّة طليقة.

أدركت «سيرا» أنه لا يزال ينتظر جوابها، فقالت بثبات: «أنوي أن أعيد له خاتمه»

فألحّ «كير»: «مهما يكن ما سيقوله، لن تغيري رأيك؟».

ـ لا، لن أغيّرَ رأيي.

تلاشى التوتر عن ملامحه، وتمكنت لبرهة من إلقاء نظرة خاطفة على الوجه الذي بات هادئاً ومسترخياً قبل أن يتحوّل إلى قناع لا يمكن اختراقه. خرج من السيارة واستدار نحوها ليفتح لها الباب بثقة تامّة، كما لو أنه يملك المكان. فأمسك مرفقها ومشى معها حتى بلغا غرفة الجلوس.

ظهر «ساندرز»، رئيس الخدم، فجأة وقال: «آه، هذه أنتِ آنستي. كان السيد يسأل عنكِ بإلحاح».

ـ هل تعرف أين أجده الآن، «ساندرز»؟.

ـ علمتُ أنه يرتاح في جناحه، آنستي.

ـ شكراً لك.

ستُسارع للتحدُّث إليه هناك، وذلك لمصلحة الجميع، ففي جناحه، لن يتمكن أحد من الضيوف من سماعهما.

مشت نحو جناح «مارتن» و «كير» إلى جانبها، وقرعت الباب. بعد بضع ثوانٍ، فتحت «كاثلين» الباب وصاحت بصوت منخفض: «لقد عدتِ! فليتمجد الإله! إنه في الخارج على الشرفة».

بدت «كاثلين» كعادتها، لكن عينيها عكستا نظرةً مشككةً سرعان ما تلاشت حين رأت «كير» الذي سألها: «كيف هي الحال؟».

ـ كنتُ أبذل كل ما في وسعي لتهدئته منذ وقت الغداء، لكن دون جدوى. لقد تملكه الغضب.

صاح «مارتن»: «من الطارق بحقّ الجحيم؟ لا أرغب برؤية أحد».

تنحّت «كاثلين» جانباً لتفسح لها الطريق إلى غرفة المكتب، وقالت «لسيرا» بهدوء: «إنه لا يتوقع منكِ أن تطرقي الباب».

تمهل «كير» قليلاً ليهمس شيئاً لـ «كاثلين»، بينما رفعت «سيرا» كتفيها واتجهت نحو الشرفة.

***

٧ ـ المطلوب كلمة واحدة!

ما إن وصلت «سيرا» إلى باب الشرفة حتى التفتْ «مارتن» بكرسيه نحوها. عندما وقع نظره عليها، علا قسمات وجهه الغضب.

ـ أين كنتُ بحق الجحيم؟.

تقدمت منه وهو يقول: «كنتُ قلقاً إلى حد الرعب طيلة النهار».

انضمت إليهما «كاثلين» وهي تنصحه بمرح: «قد أُضيفُ بعض الملح لو كنتُ مكانك، لأتلذذ أكثر بمذاق الرعب هذا... لم ينهض حضرته من النوم حتى وقت الغداء».

حدجها «مارتن» بنظرة تأنيب ثم التفت نحو «سيرا» مضيفاً: «لم تجيبي عن سؤالي... أين كنتِ؟».

أجابه «كير» بهدوء: «لقد كانت برفقتي».

نظر إليه «مارتن» بذهول قبل أن ينفجر غاضباً: «ماذا عدت تفعل هنا بحق الجحيم؟ سبق أن قلتُ لك بوضوح إنك غير مرغوبٍ وغير مرحب بك هنا. لم لا تتوقف عن التقرُّب من «سيرا»؟».

ظل «كير» واقفاً عند باب الشرفة ورفع حاجبه الداكن مجيباً: «إذا قلت لي عن أي سؤال تريدني أن أجيبك أولاً، فقد أحاول الامتثال لأوامرك».

ـ لا تزعج نفسك بالإجابة عن أي منها. أخرج من هنا فحسب!.

ـ من العدل أن أنبهك أن «سيرا» ستأتي معي عندما أخرج من هنا.

افترَّ ثغر «مارتن» عن ابتسامة نصرٍ أكيد وهو يقول: «لن تتركني

«سيرا»».

ـ لا تراهن على ذلك.

ـ من المؤكد أنك تلقيت الرسالة في الليلة السابقة؟ قد تكون «سيرا» امرأة جبانة خائنة لكنها عند الشدة، ستبقى معي.

مدَّ «مارتن» بتسلط إلى «سيرا» يداً آمرة حاسمة قائلاً: «تعالي إلى هنا».

قال «كير» بهدوء: «أظنك ستجدها غير مستعدة لتلقي الأوامر».

فصاح به «مارتن»: «هل لكَ أن تهتم بشؤونك اللعينة؟».

والتفت إلى «سيرا»: «سيرا...؟».

جاء صوت «سيرا» لطيفاً رقيقاً: «أنا آسفة «مارتن»... لكن «كير» على حقّ».

وافقها على الفور وأضاف: «حسناً، لا للأوامر بعد الآن، لكنك لن تتركيني، فنحن سنتزوج».

ـ أنا آسفة... لا أستطيع الزواج بك. ما كان يجب أن أوافقك على هذا منذ البدء...

استشاط «مارتن» غيظاً واستحال لون وجهه قرمزياً من الغضب، فسارعت تقول: «أنا أقدِّرك كلَّ التقدير، لكني لا أحبك.... أردتُ أن أحبك، وحاولت أن أحبك... لكن الحب لا يولد بهذه الطريقة».

ـ هناك رجل آخر... أليس كذلك...؟.

نظر «مارتن» بحقدٍ نحو الباب الذي كان «كير» واقفاً فيه، قبل أن يذهب مع «كاثلين» وقال: «لن تقولي لي إنك تحبين «سائر لاند»؟».

تساءلت «سيرا» لبرهة إن كان عليها أن تخبره بالحقيقة، ثمّ قررت ألا تفعل. فالاعتراف له بأنها تحب خصمه لن يساعدها في شيء، بل إن ذلك سيضيف الإهانة إلى الجرح.

اختارت كلماتها بتأنٍّ، وقالت: «لا، لن أفعل ذلك».

ـ إذن، أظنُّ أن بإمكاننا المضي في مشروع الزواج، حتى إن كنت لا تحبينني. فقد قلت إنك تقدرينني.

www.elromancia.com

ـ التقدير ليس كافياً. لن ينجح الأمر «مارتن». أنت تظنُّ أنك تريدني الآن، لكنك ستغيِّر رأيك بعد فترة وجيزة، ولن يكون أيٌّ منّا سعيداً.

ـ كيف تتركيني بعد أن أصبحت مقعداً عاجزاً؟.

ـ لن تكون مقعداً.

ـ لا أظنك تكترثين جداً للأمر. لقد وعدتني ليلة أمس بألاّ تتركيني.

ـ فعلت ذلك لأني كنت لا أزال أظنني المسؤولة عن وقوع الحادث...

خبا اللون عن وجه «مارتن» ليصبح أبيض كالأشباح. وتابعت قائلة: «أعتقد أني ما زلت، بمعنىً ما، مسؤولة عما حدث. فلو أني لم أُعد لك الخاتم، لما كنت قدت السيارة بتلك الطريقة المتهورة....».

ثمّ وجدت نفسها تكرر كلام «كير» حرفياً: «علينا أن نتحمل نحن الاثنان مسؤوليّة أفعالنا...».

ـ أنت تعرفين إذن. كيف عرفتِ؟.

ـ لقد تذكرت. أنا آسفة حقاً. آسفة لكل الآلام التي تسببتُ لك بها، لم أقصد يوماً أن ألحق الأذى بك.

ـ لكني أحبُّكِ.

ـ لا أعتقد أنك تحبُّني. أنا واثقة أن ما تشعر به نحوي ليس سوى اندفاع مهووس... ولا أحد يمكنه أن يكون مسؤولاً عن هوس أي شخص آخر...

نزعت الخاتم من إصبعها بعدما شعرت براحة وحرية، وناولته إياه. فأخذه «مارتن» هذه المرة، وأخذ يحدق به وهو يبرق في يديه. فأضافت بلطف: «الحب يدوم مدى الحياة، أما الهوس فلا... ستنساني قريباً، وآمل حينئذ أن نجد السعادة الحقيقية».

بذل محاولةً أخيرة يائسة: «إن تركتني، لن تحصلي على شيء. لا مال ولا عمل ولا مكان إقامة».

ـ لكني أستطيع العثور على عمل وعلى مكان أعيش فيه، كما أني سأحصل على حريتي. هذا هو في النهاية ما يهمُّني أكثر من أي شيء آخر...

الوداع «مارتن». أتمنى أن تسامحني لأني لم أحبك.

لم يجبها «مارتن» بل طأطأ رأسه بصمتٍ مطبق.

بالرغم من أنها كانت تعي أن ما تفعله هو الصواب، إلا أنها كانت تشعر في قرارة نفسها كمن ينفذ حكماً بالإعدام بشخص آخر.

استدارت مبتعدةً وعبرت الباب إلى غرفة المكتب.

لاحظ «كير» وجهها الشاحب الحزين، فتقدم منها ولف ذراعاً مطمئنة حول خصرها قائلاً: «هل أنتِ جاهزة للذهاب؟».

أخذت نفساً عميقاً وقالت بثبات: «نعم، أنا جاهزة».

سألتها «كاثلين» بطريقتها العملية المعتادة: «ماذا عن أغراضكِ؟».

فقرر «كير» عنها: «هل بإمكانك توضيبها وإرسالها إلى شقتي في مبنى «واربورتون»؟».

ـ بالطبع أستطيع.

عانقت «سيرا» المرأة سريعاً، وقالت لها: «شكراً لكِ على كلّ شيء. ستعتنين بـ «مارتن»، أليس كذلك؟».

ـ نعم، سأعتني به.

مشتْ «سيرا» كالأموات الأحياء، وسمحت لـ «كير» بأن يقودها إلى السيارة، وعندما استدارت لتلتقط حزام الأمان، صعد «كير» إلى جانبها ومدَّ يديه ليحكم الحزام حولها بنفسه.

بعد بضع دقائق، كانا يغادران «باين كوف» ويتجهان إلى نيويورك.

ألقت رأسها على مسند الرأس المريح في سيارة «كير» الفخمة وأغمضت عينيها. يبدو لها الآن أنّ دهراً قد مرَّ منذ يوم الخميس... أيُعقل أن «كير» عاد للظهور في حياتها يوم الخميس فقط؟ فمنذ ذلك اللقاء المفاجيء في المنتزه، حدث الكثير من الأمور... لقد خلَّصها من عبءٍ كان يثقل كاهلها، عبء الشعور بالذنب الذي لم تقوَ على احتماله، وغيَّر مسار مستقبلها، وقدم لها الحرية الغالية على قلبها...

لكن لماذا؟ وماذا يتوقع منها أن تفعل؟.

www.elromancia.com

قامت لتوّها بالتحرُّر من القيود التي فرضها هوس رجل بها، فهل ترغب حقاً في البقاء مع رجل آخر اعترف بأنه مهووس بها تقريباً؟.

لكنها، أثناء مقارنتها هذه، علمت أنها مقارنة غير عادلة، فالاختلاف كان ساحقاً. لقد تمكن «مارتن» من العثور على أساليب تبقيها إلى جانبه رغماً عن إرادتها. أمّا بالنسبة إلى «كير»، فهي واثقة كلَّ الثقة من أنه لن يفعل ذلك قط. فإن عرف أنها لا تريد البقاء معه، سيدعها تذهب.

إلاّ أنها تريد البقاء معه. فهي تحبه، وتريد البقاء معه طالما أنه يريدها. لكن إلى متى يستمرّ هذا الأمر؟ فكما ألمح لها «كير» ذات مرة، الهوس لا يدوم...

تنهدت بعمق وهي تطرد شكوكها واضطرابها، فهي الآن تشعر بضعف يمنعها من التفكير بشكل سويّ ومن اتخاذ قراراتٍ صائبة...

لقد تمكنت منها كل تلك التيارات العاطفية الجارفة التي مرت بها في الأيام الأربعة الأخيرة، وذهبت بكل قواها. كل ما هي قادرة على فعله الآن هو الامتنان لمساعدة «كير».

عندما فتحت «سيرا» عينيها، كانا يدخلان موقف سيارات تحت الأرض. عرفت أنه مبنى «واربورتون»، وأدركت أنها غطت في نومٍ عميق لثلاث ساعاتٍ تقريباً.

لكنها لاحظت أن اضطرابها وشكوكها تلاشت أثناء نومها. كانت قد اتخذت قراراً، وشعرت بالثقة في ما تريد. فهي باتت تعرف الآن أنها ستتمسك بكلّ فرصة تمنحها السعادة والهناء، من دون التفكير بما قد يحدث لاحقاً. نظر إليها «كير» وسألها: «هل تشعرين بتحسُّن؟».

ابتسمت له قائلة: «أفضل بكثير».

لم يبادلها الابتسام، بل استدار يفتح لها الباب ويساعدها على الخروج... كان موقف سيارته قريباً من المصعد، فاستخدم مفتاحه الخاص، وبعد بضع ثوان، كانا يصعدان إلى الأعلى.

رغم أنها لم تدخل إلى شقته سوى مرة واحدة لبعض الوقت، إلا أنها

بدت لها مألوفة جداً ومرحِّبة بشكل غريب. وشعرت كأنها في بيتها أكثر مما كانت تشعر في شقة «مارتن». أم أن السبب ببساطة هو أن «كير» هنا معها؟.

قال لها بنبرة مهذبة وهادئة: «هناك غرفة للضيوف بإمكانك استعمالها في الوقت الراهن».

شعرت بالراحة والطمأنينة لما خبرته من حرص «كير» حتى الآن على عدم استغلال حبها له وعلى صونها من الأذى كما لو أنها أغلى ما لديه في الحياة. فتح باباً إلى جهة اليسار وأدخل الحقيبة الصغيرة إلى الغرفة، وقال: «السرير جاهز. وكلّ شيء آخر في الغرفة».

بدا كأنه يحاول اجراء محادثة عادية رسمية من دون أن تظهر في صوته أي نبرة مرحبة بشكل خاص. وأضاف: «هل تريدين البقاء في البيت على العشاء، أم تفضلين تناول الطعام خارجاً؟».

بالرغم من استرسالها في نوم عميق طوال الرحلة، إلا أنها كانت لا تزال منهكة، بحيث تعجز عن بذل الجهد الذي يتطلبه الخروج إلى أحد المطاعم. لكنها تساءلت إن كان «كير» يرغب بالخروج، فأجابته: «ليس لدي أي مانع حقيقي، سأترك القرار لك».

تأمل وجهها الشاحب والظلال القاتمة تحت عينيها الجميلتين، ثم قال: «هناك الكثير من الطعام في الثلاجة. سأعدُّ طبقاً بينما تغتسلين أنتِ وتبدلين ثيابك».

اغتسلت وهي تتساءل عن برودة «كير». فقد كان ليلة أمس محباً ودافئاً وحنوناً، كان كالرجل الذي حصل أخيراً على ما أراده وعزم على الاحتفاظ به. لكن سلوكه معها تبدل بشكل جلي منذ صباح هذا اليوم. وعلى الرغم من بقائه إلى جانبها ورعايتها، إلا أن ذلك الدفء المحب الذي رأته منه البارحة قد تلاشى. فهو يبدو الآن بعيداً ومنسحباً وشارد الذهن كما لو أنه يتعمد وضع حدود بينهما.

غير أنها كانت تعلم مدى دقته وحرصه على علاقتهما، فخمنت أنه

www.elromancia.com

بالتأكيد يحاول أن يمنحها الوقت لكي تستعيد أنفاسها.

لم تكن في الواقع بحاجة للمزيد من الوقت، فقد حسمت أمرها، وسوف تصارحه بمشاعرها ما إن تسنح لها أول فرصة.

كان مزاجها هادئاً، فبدلت ثيابها وارتدت التنورة والقميص الحريري اللذين قدمهما لها «كير» ثم سرحت شعرها المشعّث وعقدته إلى الخلف قبل أن تتجه نحو المطبخ. وقف «كير» إلى الطاولة يحضر السلطة وقد ربط مئزرةً حول خصره، بينما وضع شريحتين من اللحم على نارٍ هادئة. ولاحظت «سيرا» أنه جهز المائدة ووضع عليها كوبين من عصير البرتقال الطازج. كما لاحظت أنه تسنّى له الاستحمام وحلق ذقنه وتبديل ملابسه، حيث ارتدى بنطالاً طحينياً وقميصاً أبيض. رفع عينيه ينظر إليها عند دخولها، لكنه، مرة أخرى، لم يبادلها الابتسام.

ارتجفت من شدة برودته في استقبالها، فماتت الكلمات التي أرادت قولها وتلاشت بين شفتيها. وقال: «قررتُ أن نتناول الطعام في الداخل، فالجوّ ينذر بهبوب العاصفة».

ومض البرقُ في السماء، ثم تبعه صوت الرعد آتياً من بعيد، كأنهما يؤكدان ما قاله. سحب لها كرسياً تجلس عليه، بكياسة المضيف وتحفظه، ثم شرع في سكب الطعام.

كانت شريحة اللحم مطهوة جيداً والسلطة منعشة ولذيذة الطعم، إلا أن «سيرا» أحست بفقدان شهيتها بعد الأحداث المؤلمة التي عصفت بها في الأيام القليلة المنصرمة.

وبدا «كير» كأنه فقد شهيته أيضاً، فرغم أنه أبقى نظره مسمراً على صحنه، إلا أنه لم يأكل إلاّ القليل من دون أي متعة ظاهرة.

تساءلت عمّا يفكر به «كير»، وقد اشتدت برودة ملامحه. لقد حارب بضراوةٍ لانتزاعها من «مارتن»، ويجب أن يبدو الآن، بعدما ربح المعركة، سعيداً منتشياً بالنصر، لا أن يظهر بمظهر الرجل الذي يحدّق في عمق الجحيم.

عند انتهاء الوجبة، سكب «كير» القهوة، وبدا أنه يبذل جهداً لإبعاد الاضطراب الذي ألمّ به. ثمّ قطع الصمت المخيّم قائلاً: «يبدو أن العاصفة قد ابتعدت. هل نشرب القهوة في الخارج؟».

التقطت «سيرا» فنجانها واتجهت نحو الشرفة لتجلس على أحد المقاعد. تبعها «كير» وجلس إلى جانبها. أنهيا قهوتها ووضعا فنجانيهما على الطاولة أمامهما في صمت تامّ.

سبق لهما أن عاشا معاً لحظات صمتٍ عديدة في أوقات مختلفة. لكن تلك اللحظات كانت تبعث على الارتياح والسكينة والشعور بالمودّة الصادقة، ولم تكن قطّ لحظات مثقلةً بالتوتر والاضطراب كما هي الآن.

فجأة، عزمت «سيرا» على معرفة ما يجول في خاطره، فسألته: «ما الذي حملك على الشكّ في أن «شيرل» تخفي الحقيقة في ما يتعلق بالحادث؟».

أجابها «كير» بصدقٍ بعد برهة: «لم أشكّ في شيء بالفعل. بل كان مجرد حدس يقول لي إن وراء الأمر أكثر مما قيل حقاً. لذا، قررت أن أحاول معرفة الحقيقة عن طريق الخداع».

ـ لا يمكنني أن أعبر لك عن مدى سروري بنجاح محاولتك.

ـ لم يكن الأمر صعباً. فما إن صممت على معرفة الحقيقة، حتى بادرت «شيرل» للتخلص من هذا العبء الذي يثقل كاهلها.

علت مشاعر الامتنان قسمات وجهها، ومدت يدها تربت على ذراعه قائلة: «لكن، لو أنك لم تذهب إلى هناك وتدفعها على الكلام، لما كانت أخبرتني بذلك قط. ولكنتُ تزوجتُ برجلٍ لا أحبه واستمريتُ في الشعور بالذنب حتى آخر يوم في حياتي».

لم يقل «كير» شيئاً، فتابعت تقول بهدوء: «أردت فقط أن أشكرك وأعبر لك عن مدى امتناني لما قمتَ به من أجلي».

مرّة أخرى التزم «كير» الصمت. كان ثمة شيء غريب في فتور ملامحه الحادة وفي برودة المتعمد، جعلها تسحب يدها وتغرق في صمتٍ عميق.

لم يبدو «كير» فظّاً إلى هذا الحد؟ بل إنه يكاد يبدو غاضباً من شكرها

له. هل إنه سئم الأمر كله، وبات ينتظر اللحظة التي يتخلص فيها منها؟.

لا، بالتأكيد لا. لكن، لا بد أن ثمة سبباً ما وراء سلوكه هذا...

ربما لم يعد «كير» يريدها، بعد أن حقق مأربه. ألم يكن يسعى للانتقام من «مارتن»؟ لقد أكد لها هذا الأمر سابقاً، ولا بد أنه لم يعد الآن مكترثاً بها، لكن، هل يبرر كل هذا سلوكه الفظ المفاجىء؟.

لا، إنها لا تستطيع تصديق هذا الاحتمال. كما أن حدسها يخبرها بأنه لا يزال يحبها الآن.

مهما يكن ما يقلقه، فإنه حتماً ليس عدم حبه لها!. لكن، ما عساه يكون ذلك؟.

هناك طريقة واحدة تمكنها من اكتشاف الحقيقة. قالت بعد أن اختارت كلماتها بعناية بالغة: «كنت أتساءل عن السبب الذي دفعك لدعوتي إلى منزلك».

أجابها ببرود: «وأين كنت تتوقعين أن تذهبي؟».

- إلى أي مكانٍ آخر.

- من الواضح أنك لا تحتفظين لي في نفسك بنظرة جيدة.

قبل أن ينسى لها مصارحته برغبتها في البقاء إلى جانبه، وبعدم جدوى تهكمه وسلوكه الفظ، تابع يقول: «سمعتك تقولين لـ «روثويل» إن الحرية هي ما يهمك أكثر من أي شيء آخر».

- نعم، لكني...

- إذن، ماذا تنوين أن تفعلي الآن بعد أن استعدتِ حريتكِ؟.

أجابته: «أنا... أعتقد أن أول ما سأفعله هو العثور على عمل. ثم علي أن أجد مكاناً أقيم فيه...».

وأضافت بتلعثم: «إلا إذا أردتني أن أبقى معك؟».

- لا أريد ذلك.

- إذن. هل ستأتي لرؤيتي؟.

- لا.

كان جوابه صارماً، تركها في حيرة من أمرها أكثر من السابق، لكنها أصرّت على أن تحثّه على الكلام عبر استفزازه بكلّ وسيلة تعرفها للوقوف على ما يجول في خاطره ولكشف نواياه تجاهها. فسألته: «لكن... لكني ظننتك تريد مني أن أبقى معك».

- لقد أخطأتِ في ظنونكِ.

لم تعد تحتمل فظاظته، فانفجرت غاضبة: «هذا ما جعلتني أنت أظنه! قلت إنك تريد مني أن أعود إليك. قلت لي إنك تريد الزواج بي...».

- هل سمعت يوماً المثل القديم الذي يقول: احترس، فقد يكون ما تتمناه سهل المنال جداً؟.

راقبها وقد شحب وجهها حتى بدت كالأشباح، ثم نظر أمامه مباشرةً وهو يقول بنبرة عادية تخلو من المشاعر: «هناك وظيفة شاغرة في شركة «ساثرلاند» قد تناسبكِ. فإن «كريستوفر ريدوود»، أحد مدرائي الكفوئين، بحاجة لمساعدة شخصية. تحصلين في هذه الوظيفة على راتب جيد جداً، كما أن لدي شقة خالية في أحد الأبنية التي أملكها. لكنها ضيقة وغير مفروشة، إلا أنها تفي بالغرض في الوقت الحالي...

... بإمكانكِ بالطبع أن تبقي هنا إلى أن تسنح لكِ فرصة تجهيزها وشراء بعض قطع الأثاث... لا أعتقد أن هناك احتمالاً بأن تلتقي «روثويل»، حتى وإن عاد على الفور. رغم أنّي أعتقد أن على «كاثلين» التصرف بفطنة ودهاء لتبقيه حيث هو للأيام القليلة المقبلة على الأقل. سأسعى لإعطائك سلفة على المعاش، لكي تتمكني من شراء كل ما تحتاجين إليه من دون التعرض لأي ضغوطات مالية».

قالت «سيرا» بحدة وقد اعتصر قلبها الألم: «شكراً لك، لكن نظراً للظروف، لا أعتقد أن...».

قاطعها «كير» بسخرية: «لا داعي لأن تقلقي، لن أكون في الجوار، فأنا أخطط للعودة إلى انكلترا».

رددت كلماته بدهشة: «تخطط للعودة إلى انكلترا؟ لكني ظننتك عدت

www.elromancia.com

لتستقرَّ هنا!».

ـ كانت تلك نيتي في البدء، لكني غيرتُ رأيي.

ـ لماذا؟.

ـ ربما لأني لم أعد أجد نيويورك تناسبني.

لم تصدق كلمة مما قال، فلطالما أحب «كير» نيويورك واعتبرها موطنه الأصلي. لماذا إذن، يقرر العودة إلى انكلترا؟ ليس ذلك منطقياً. إلاَّ إذا... فسألته بفم جاف: «متى تفكر في العودة؟».

ـ غداً صباحاً...

غداً صباحاً! لم يعد لديها وقت كافٍ. عليها أن تتصرف الآن أو تسكت إلى الأبد... ولا بد أن تلجأ إلى طريقة الصدمة.

ـ سأحجز مقعداً على طائرة الكونكورد ما إن أنتهي من ترتيبات وظيفتك الجديدة.

انتفضت «سيرا» واقفة وهي تصيح عالياً: «بإمكانك الاحتفاظ بوظيفتك تلك وبشقتك وبسلفتك اللعينة على المعاش!... هل تذكر ما قلته لي يوم الخميس الماضي؟ لا؟ حسناً، أنا أذكّرك! قلت لي: إن ابتعدت عن «روثويل» وعدتِ إليّ، أنا أملك ما يكفي من المال لأشتري لكِ خاتماً ماسياً لكلِّ إصبع من أصابعكِ، وأوفّر لكِ مستوى الحياة الذي تحبين ـ باختصار، لأقدّم لك كلّ ما يشتهيه قلبك».

بدا «كير» مذهولاً: «حسناً، إن كان هذا ما تريدين، سأخصص لك حصة وافرة و...».

ـ يمكنك الاحتفاظ «بحصّتك الوافرة» كذلك... إن كنت لا تكترث بي إلى هذا الحدّ، فلن أقبل منك أي شيء. لستُ بحاجة لمساعدتك. هيا، أهرب... لم لا تهرب؟

وقف واتجه نحوها غاضباً: «ما الذي يجعلكِ تظنين أني سأهرب؟».

تحدته بعنف: «أوليس هذا ما تفعله؟».

تنهد «كير» بحدة وسرعة: «حسناً، سمِّه هرباً إن شئتِ. لكن، إذا

بقينا نحن الاثنين في نيويورك، فلن أضمن لكِ البقاء بعيداً عن طريقكِ».

انفطر قلبها حين علمت أنها كانت محقة منذ البدء. إنه لا يزال يحبّها ويريدها. في السنة الماضية، منعتها كبرياءها من الصراع للاحتفاظ به، فخسرته. ولا نيّة لديها الآن لارتكاب الخطأ نفسه مرّة ثانية. استدارت لمواجهته، وقالت: «لا أريدك أن تبتعد عن طريقي. أريد أن أكون معك وإلى جانبك. أريد مشاركتك حياتك طالما أنّك تريدني».

ـ أهي دفعة أولى لقاء الخدمات التي قدّمتها لكِ؟ قلتِ لي يوماً إنكِ لستِ للبيع. وأنا الآن لا أريد أن يكون الامتنان العملة المتداولة بيننا.

ـ لكن الأمر ليس...

كان جلياً أنه لم يصدّقها. فأخذت نفساً عميقاً، وقالت: «في أي حال، لم تهتم بدوافعي في حين أعلنت سابقاً وبوضوح أن الانتقام هو دافعك؟».

قال بتثاقل: «لقد ماتت أي رغبة في الانتقام عندما اكتشفت الحقيقة. أنتِ تتمتّعين بحسٍّ أخلاقيّ عالٍ وراقٍ جداً، لكني أملك القليل منه أيضاً. لذا، لا أستطيع أن أطلب منك الانتقال من سجن إلى آخر».

ـ لكن، معك أنتَ، لن يكون سجناً!.

ـ لا أستطيع تحديد الاختلاف. فأنت لم تحبي «روثويل»، كما أنك لا تحبينني أنا.

ـ لكني أحبك.

ـ ليس ثمة مبرر للكذب. عندما سألتك، قلتِ إنك لا تحبينني... ولم أستطع منع نفسي من سماع حديثك مع «روثويل». سألتكِ إن كنت تحبينني، وأجبت بالنفي.

ـ لم يكن الحديث على هذا النحو. ما قاله بالتحديد كان: لن تقولي لي إنك تحبين «سائر لاند»؟ فقلتُ أنا: لا، لن أفعل.

ـ إنك كمن يحاول عبثاً التمييز بين أمرين متطابقين. ففي أيّ حال، لن يحدث ذلك أيّ فرق. قد تكونين عازمة على البقاء معي، وأنا أعلم أني قادر على حملك على البقاء... لكن هذا ليس كافياً... أنتِ من النساء اللواتي

يتزوجن برجل يحببنه، رجل يرغب بإنجاب الأولاد، ويسرُّه أن يقوم بالتزام مدى الحياة. إن أفضل ما يمكنني القيام به من أجل خيرنا نحن الاثنين، هوَ أن أتركك وشأنكِ...

لخيرنا نحن الاثنين... أثارت هذه الجملة الشكوك في رأس «سيرا». هل هي مخطئة في ظنِّها أنه يترك لها حريتها ويطلق سراحها لخيرها هي فقط؟ أصحيح أنه لا يكترث بها على الإطلاق؟.

قررت أن تجازف بكل شيء مرة واحدة. فقالت له: «أنا أواجه بعض المشاكل إذن. فالرجل الذي أحبه لا يريد الزواج بي... ولا يكترث لأمري البتة، بل إنه يتركني أرحل عنه ببساطة ومن دون أن يطرف له جفن، كأني كنت دوماً بالنسبة إليه علاقة عابرة لم يقم لها أي وزنٍ أو أهمية في حياته».

قطب «كير» حاجبيه وهو يحدق بها بتمعن، ثم قال: «من الأفضل أن توضحي لي ما ترمين إليه».

ـ ما أرمي إليه بسيط وواضح جداً... أنا أحبك... لطالما أحببتك، منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. هذا ما جعل حبّي لـ «مارتن» مستحيلاً، فأنت تحتل قلبي وروحي وفكري...

ـ ماذا؟.

ـ أنت تحتل قلبي وروحي وفكري.

ـ لكنك قلت إنك لا تحبينني!.

ـ كان ذلك منذ سنة خلت، حين ظننتك تحب «شيرل». فقد منعتني كبريائي حينها من الاعتراف بحبي لك. ألا ترى؟ كل ما جرى لم يكن سوى سوء تفاهم أحمق.

ـ آه، يا إلهي!.

ـ بالطبع، أنت ما زلت عازماً على العودة إلى إنكلترا غداً، سأتفهم ذلك. فما من رجل مثلك يرغب بالوقوع في فخ الزواج، خاصةً إذا لم يكن واقعاً في الحب... أنا واثقة من قدرتي على تدبُّر أمري. لا تقلق...

أمسك كتفيها بشدة وهزها بعنفٍ قائلاً: «إن كنتِ تعنين ما أظن أنك

تعنينه...».

ـ لا، لم أكن أحاول ثنيك عما قررت القيام به، ولا التأثير عليك بأي شكل من الأشكال... بل شعرت فقط بالرغبة في الاعتراف لك بحبي، لعلك تدرك يوماً من الأيام أني لستُ مهتمة بما تملك من مال، وأني لست بحاجة إلى مساعدتك...

ـ إن كنت تحبينني حقاً، سنتزوج على الفور و...

انتزعت نفسها من بين يديه وقالت بنبرة ساخرة: «نتزوج! هل تعتقد للحظة واحدة أني قد أتزوج برجل قال لي للتو إنه يريد الفرار والابتعاد؟».

ـ لا تتغابي «سيرا». أنت تعلمين جيداً أني كنت أفكر بمصلحتكِ أنتِ.

ـ لا أعرف عما تتحدث. إن كنت تظن أني قد أتزوج برجل لا يكترث بي البتة، فأنت مخطىء. لقد اعترفت لتوك بما تكنه لي من مشاعر، حين قلت بوضوح: «احترس، فقد يكون ما تتمناه سهل المنال جداً»... لقد اتهمتني بأني لا أحبك، في حين لا تريدني بقربك بعد الآن، تريد الابتعاد عن طريقي وعن حياتي. أنت الذي لم يعرف للحب معنىً وليس أنا.

ـ لكني أحبك بكل جوارحي!.

كان ذلك جل ما تنتظر سماعه بحرقة وتشوق. لكنها لم تثق بعد بنواياه وبما يجول في خاطره، فقالت تحثه على الكلام أكثر فأكثر: «لا داعي لأن تكذب علي، فقط لأني اعترفت أمامك بحبي لك. فلست أول امرأة تحب رجلاً لا يحبها...».

ـ لست أكذب عليك! الله وحده يعلم أني لم أتوقف يوماً عن حبك. فقد امتلكت كل مشاعري ولم أستطع نسيانك. لذلك. قررت العودة، لأني أحبك «سيرا»...

وضعت اصبعها على شفتيه وقاطعته قائلةً: «هل تحبني حقاً؟ إن كنت تحبني كما تقول، أثبت لي ذلك، بالفعل لا بالكلام، فقد سئمتُ وضجرتُ من الكلام... دعنا لا نضيع مزيداً من الوقت».

اقترب منها وأخذها بين ذراعيه بلهفة وشوق، وعانقها طويلاً، ثم قال

www.elromancia.com

لها بصوتٍ أبحّ: «آه، حبيبتي، لو أنك عرفت فقط مدى حبي لك. لقد مرت بي السنة المنصرمة كالجحيم بعيداً عنكِ... أرجوك «سيرا»، قولي إنك تقبلين الزواج بي».

ـ هل أنت واثق مما تريد؟.

ـ قلت لي إنك تحبينني، أليس كذلك؟ لو كان لدي بصيص من أملٍ في حبك لي، لكنت سألتكِ الزواج منذ اللحظة التي...

توقف فجأة عن الكلام عندما وقع نظرهُ على سلسلتها الفضية، فمد يده يلتقطها ليسحبها خارج قميصها. التمعت عيناه ببريقٍ غريب وهو يحدق بدهشة وحزنٍ بالخاتم الفضي المعلق بالسلسلة، وقد حبس أنفاسه وتسمر في مكانه لا يأتي حراكاً. نظرت إليه «سيرا» بحنو توشك على البكاء. فسألها: «منذ متى وأنت تضعين هذا الخاتم في السلسلة؟».

ـ منذ ما يقارب السنة. منذ الليلة التي اكتشفت فيها أنني انتزعته من اصبعي. المرة الوحيدة التي لم أضعه فيها كانت ليلة البارحة، فقد خفتُ إن أنت رأيته، من أن تكتشف أني لم أتوقف يوماً عن حبك.

ـ أتمنى لو أني رأيته. لكان ذلك وفر علي يوماً طويلاً من الجحيم. لقد عشت في صراع مؤلم مع ضميري، وأنا أحاول اقناع نفسي بأني قادر على اسعادكِ، وبأنيّ لن أكون مجرد «روثويل» ثانٍ... أترين؟ حتى الليلة الماضية، قلتُ لنفسي إنّك لا تزالين ربما تشعرين بشيء نحوي. لكن، حين أقسمت بأنك لا تحبينني، شعرت بروحي تتمزق... أيتها الفتاة، لو أنك تعرفين فقط ما تسببت لي به من آلام...

ـ أنا آسفة... لكني ظننت حينها أن علي العودة إلى «مارتن»... لذلك اضطررت للكذب عليك.

لامست وجنته بظاهر كفها الرقيق ومرّرت أصابعها على ذقنه الصلب، فقال لها: «ماذا ستفعلين إذن للتعويض علي؟».

ابتسمت له باشراق ومرح قائلة: «سأفكر بشيءٍ ما».

ـ دعيني أولاً أعيد وضع هذا الخاتم في مكانه الصحيح.

أخذ السلسلة بيديه وحرر الخاتم منها ودسه في إصبعها معلقاً: «سيفي هذا بالغرض الآن حتى أتمكن من شراءِ خاتم حقيقيّ لك».

ـ لا أريد أي خاتم آخر. كل ما أردته يوماً هو حبك.

ـ إنه لك أنتِ.

ـ هل ستحبينني مدى الحياة؟.

كانت نبرتها مشككة، مما جعله ينظر إليها بتساؤل قلق: «هل من سببٍ يمنعني من ذلك؟».

ـ حسناً، بعد أن نتزوج، سأرغب حقاً في إنجاب الأولاد، ولا يبدو لي أنك...

ـ لا أبدو لكِ ماذا؟.

ـ لا تبدو لي من نوع الرجال الذين قد يقيدون أنفسهم بالأولاد...

ـ اسمعي «سيرا»، بعد أن نتزوج، أتمنى أن نؤسس عائلةً كبيرةً في وقتٍ قريب. في الواقع لن أقوى على الصبر حتى أرى أولادنا يملؤون البيت. لكني أنوي الاحتفاظ بكِ لنفسي لسنة أو أكثر، من دون أن ينافسني أحد في حبك... والآن، هل لديكِ أي شيءٍ آخر ترغبين بالاستعلام عنه؟.

ـ هناك شيء واحد فقط.

ـ وما هو؟.

ـ أتساءل إن كنت توافق على تسمية ابننا «كير». ما رأيك؟.

ـ فقط إن كنتِ توافقين على تسمية ابنتنا «سيرا»...

***

www.elromancia.com